لوكليزيو

الباحث عن الذهب

ترجمة وتقديم

فتحى العشرى

إهداء المؤلف :

إلى جدى ليون

إهداء المترجم :

إلى حفيدى الذى لم يأت بعد

قاع بوكان ١٨٩٢

منذ زمن طويل كما أتذكر سمعت البحر .ممزوجا بالريح في محيطات "فيلاوو " بالريح الذى لايكف حتى عندما نبتعد عن الشواطىء ونتقدم عبر حقوله لتصب هذا الصخب هوالذى هدهد طفولتى أسمعه الآن في أعمق أعماقى أحملة في كل مكان أذهب اليه .
الصخب المتهمل النشط للامواجالتى تتكسر على البعد فوق سد مرجانة والتى تجىء لتموت على رمال النهر الاسود لايمر يوم دون أن أذهب الى البحر لاتر ليله دون أن أستيقظ ظهرى مبلل بالعرق أجلس في فراشى بالكامب أبعد الناموسية وأسعى لمراقبة المد والجزر المضطرب الملىء برغبة لا أفهمها .

أفكر فيه كما لو كان إنسانا وفي الظلام كل حواسى تكون يقظة لكى اسمعة جيدا وهو يجىء لكى أستقبله والامواج العملاقة تقفز فوق الصخر تنهار في ماء البحر والصخب يهز الارض والهواء كما لو كانت غلاية أسمعة يتحرك يتنفس .

عندما يكون القمر مكتملا أنزلق خارج الفراش دون إحداث ضجيج محازرا قرقعة الارضية الناخرة ومع هذا أعلم أن لور لاتنام أعلم أن عينيها تظلان مفتوحتان في الظلام وأنها تكتم نفسها أتسلق حافة النافذة وأدفع مصراعى الخشب أصبح بالخارج في الليل ضوء القمر يضىء الحديقة أرى الاشجار تلمع حيث تهدر القمة في الريح أتبين كتل الاشجار الوردية الظليلةوالبامية . القلب يدق أسير على الممر الذى يؤدى الى الروابى هنا حيث تبدأ الاراضى البور . بالقفرب من الجدار المنهار توجد شجرة شالطا الضخمة التى تطلق عليها لور شجرة الخير والشر وأتسلق الفروع الكبرى لارى البحر من فوق الاشجار وامتداد القطب . القمر يتدحرج بين السحب يلقى ضياء من الضوء ربما إذن أراه فجأة من فوق الاوراق على يسار برج تاماران لوحة كبيرة مظلمة حيث تلمع البقعة التى تومض هل أراه حقا هل أمسعة ؟ البحر داخل رأسى وعندما أغمض عينى اراه واسمعة افضل المح كل قصفة موج يقسمها الصخر ثم تتحد لكى تتدفق على الشاطىء أبقى طويلا معلقا على أفرع شجرة " شالطا " حتى ينحدر ذراعى ريح البحر تمر على الاشجار وعلى حقول القصب تلألىء الاوراق تحت القمر أحيانا أبقى هنا حتى مطلع الفجر أسمع أحلم في الطرف الاخر منالحديقة البيت الكبير مظلم مغلق يشبه حطاما الريح تضرب البغال الصغيرة المقطوعة الاوصال وتجعل هياكلها تقرقع هذا ايضا هو هدير البحر وطقطقة جذع الشجرة وأنين قمم الاشجار الساقبة خفت وأنا وحدى فوق الشجرة ومع هذا لااريد العودة الى الغرفة أقاوم في برد الريح والارهاق الذى يثقل رأسى .

ليس من الخوف في الحقيقة أنه كما لو كنت اقف امام هاوية حور عميق وأنا انظر بحدة مع القلب الذى يدق بقوة والعنق الذى يقرع ويؤلم ومع هذا نعلم أنه يجب علينا أن نبقى وأننا

سنعلم في النهاية شيئا ما لا استطيع العودة الى الغرفة طالما سيصعد البحر هذا مستحيل يجب أن ابقى مسلقا شجرة " شالطا " وانتظر بينما القمر ينزلق نحو طرف السماء الاخر وأعود في الغرفة تماما قبل طلوع الفجر عندما تصبح السماء رمادية ناحية مانانافا وانزلق تحت الناموسية .

أسمع لور التى تتنفس لانها لم تنم هى الاخرى طوال الوقت الذى كنت فيه بالخارج .لاتحدثنى أبدا عن هذا ببساطة أثناء النهار تنظر الى بعينيها القائمتين اللتان تسأل وأعتذر عن خروجى لكى أسمع البحر .

كل يوم أذهب حتى الشاطىء يجب أن اعبر الحقول القصب مرتفع لدرجة أنى أذهب على غير هدى اعدو بامتداد طرق التقطيع هنا لااعد أسمع البحر شمس نهاية الشتاء تحرق تخنق الضوضاء عندما أكون قريبا جدا من الشاطىء أشعر به لان الهواء يجىء ثقيلا ساكنا محملا بالذباب في أعلى السماء زرقاء مشدودة خالية من العصافير عمياء في الارض الحمراء والمتربة أتوغل حتى الاوتاد حتى لا افسد نعلى أحملها واضعهما حول عنقى معقودين بالرباطين وهكذا تكون يداى متحررتين ونكون في حاجة لليدين متحررتين عندما نعبر احد حقول القصب . القصب مرتفع للغاية كوك الطاهى يقول أنهم سيقطعونها الشهر القادم أنها أوراق تقطع مثل ثفرات سيف قطع الاشجار يجب إبعادها ببطن اليد لكى نتقدم دونيس حفيد كوك أمامى لاأراه أبدا هو يذهب حافى القدمين منذ وقت طويل يسير أسرع منى مسلحا بخطافة لكى نتنادى قررنا أن نصر خطاف العشب مرتين أو نعوى إذن مرتين هكذا أوها ! الهنود يفعلون هذا عندما يسيرون وسط القصب المرتفع في وقت القطع بسكاكينهم الطويلة .

اسمع دونيس بعيدا أمامى : أوها ! أوها ! أرد بخطافى لاوجود بضجيج أخر البحر في كامل إنخفاضه هذا الصباح لن يصعد قبل الظهيرة نذهب بأسرع مايمكننا حتى نصل الى المستنقعات حيث يختفى الجمبرى والحوريات .

أمامى وسط القصب توجد أحجار من مادة سوداء هذا في اعلى أحب أن اصعد لارى مساحة الحقول الخضراء وبعيدا خلفى الان ضائعا في فوضى الاشجار والغابات بيتنا كما لو كان ضالا بسقفة الغريب ذو اللون السماوى وكوخ كابتن كوك الصغيرة واكثر بعدا ايضا مدخنة بيمان والجبال المرتفعة الحمراء المنتصبة نحو السماء أدور حول نفسى في قمة الهرم وأرى كل القرية وأدخنة معامل السكر ونهرتاماران الذى يتثنى وسط الاشجار والتلال واخيرا البحر المظلم المتلالىء الذى تراجع في الناحية الاخرى من الصخور .

هذا ما احبه أعتقد أنى استطيع أن ابقى أعلى هذه الكوكمة لساعات وأيام ودون أن افعل شيئا غير النظر .

أوها ! أوها ! دونيس ينادينى في الطرف الاخر من الحقل هو ايضا فوق قمة كومة من الحجارة السوداء غارق فوق جزيرة وسط البحر بعيد لدرجة أنى لا أتبين شيئا منه لارى غير ظل هامته الطويلة فوق قمة الكومة أضع يدى على باب صوتى وأعوى بدورى : أوها ! أوها ! إنهبط سويا ونسير من جديد تحسسا بين القصب في اتجاه البحر .

في الصباح يكون البحر أسودا ومغلقا رمل النهر الكبير الاسود ونهر " تاماران " هما اللذان يفعلان ذلك وكذلك غبار سائل البركان عندما نتجه ناحية الشمال أو عندما نهبط نحو نهر العابس في الجنوب البحر يضىء دونيس يصطاد الاخطبوط في البحيرة المالحة عند ملجأ الصخور أنظر اليه يبتعد في الماء على فخذية الطويلتين وهو من طوال الساق وعصاه في يده لايخشى القنافذ ولا غيرها .يسير وسط برك الماء العتمة بحيث يكون ظله خلفة دائما كلما أبتعد عن النهر أزعج اسراب الطيور المهاجرة والقاق والغربان . أنظر اليه بقدمين عاريتين في الماء البارد دائما ما اطلب منه الاذن بمصاحبته لكنه لا يرغب . يقول أنى صغير جدا يقول أنه يحرس روحى .. يقول أن أبى ولى امرى له . هذا ليس صحيحا لم يتحدث اليه ابى مطلقا لا أحد غيرى يصحبه حتى النهر إين عمى فرديناند ليس له الحق رغم انه اكبر منى قليلا ولا حتى لور لانها فتاه أحب دونيس انه صديقى ابن عمى فرديناند يقول أنه ليس صديقا بما انه اسود وانه حفيد كوك لكن هذا سيان عندى فرديناند يقول هذا لانه غيور هو ايضا كان يريد أن يسير في القصب مع دونيس حتى البحر .

عندما يكون البحرمنخفضا جدا هكذا مبكرا في الصباح تظهر الصخور السوداء توجد مستنقعات كبيرة معتمة واخرى مضيئة حتى أننا نعتقد أنها تصنع ضوءا في العمق تبدو القنافذ ككرات معدنية بنفسجية والشقاقئق تفتح لوراتها الدامية ودببه البحر تحرك ببطء أذرعتها الطويلة الزغبرية أنظر في عمق المستنقعات بينما يبحث دونيس عن الحوريات بحرف عصاه على البعد .

هنا ضجيج البحر جميل كما الموسيقى الريح تحمل الموجات التى تتحطم على قاعدة المرجان بعيدا جدا واسمع كل إرتجاج في الصخر وكل ريح في السماء يوجد كما الجوار في الافق يدق البحر عليه بكل طاقتة اعشاب زبدية تفور احيانا وتسقط فوق الصخر التحتى المد بدأ يصعد هذا هو الوقت الذى يدفع فيه دونيس الاخطبوط لانه يشعر في مجساته بماء عرض البحر البارد ويخرج من مخبئة . الماء يكتسح المستنقعات الواحد بعد الاخر دببه البحر تمرجج أذرعتها في المجرى المائى سحب الخسالة تصعد ثانية في الشلالات وأرى نجما يمر يبدو متعجلا وغبيا . منذ وقت طويل منذ أن كنت صغيرا جدا أجيء الى هنا .أعرف كل مستنقع كل صخرة كل زاوية هنا حيث توجد مدن القنافذ هنا حيث تزحف

الكائنات البحرية الضخمة هنا حيث يختفى سمك الثعابين المائة باع أبقى هنا دون أن أتى بحركة دون أن أتى بضجة لكى تنسانى لكى لاترانى أبدا البحر إذن جميل ورقيق جدا عندما تكون الشمس مرتفعة في السماء فوق برج تاماران يصبح الماء خفيفا أزرق شاحب لون السماء زمجرة الامواج فوق الصخر تدوى بكل قواها مبهورا بالضوء أبحث عن دونيس مطرف العينين البحر يمرق عن طريق المضيق الان يعظم امواجه البطيئة التى تغطى الصخر .

حينما أصل الى الشاطىء عند مصب النهرين أرى دونيس يجلس فوق الرمل اعلى الشاطىء في ظل صناع المخمل في طرف عصاه دستة حوريات معلقة كأردية الشيفون هو ينتظرنى دون حركة حرارة الشمس تحرق كتفى وشعرى في لحظة أخلع ملابسى واسبح عاريا في ماء المستنقع هنا حيث يلتقى البحر بالنهرين اسبح ضد تيار الماء الرقيق الى أن اشعر بالحصى الصغيرة المدببه في بطنى وركبتى عندما أكون قد دخلت تماما في النهر امسك بيدى حجرا كبيرا وأدع ماء الانهر يسكب فوقى لكى يغسلنى من احتراق البحر والشمس .

لاشىء لم يعد يوجد لاشىء لايحدث لايوجد غير هذا أن اشعر أن ارى السماء زرقاء تماما ضجيج البحر الذى يصارع ضد المستنقعات والماء البارد الذى يجرى حول جسدى .

أخرج من الماء مرتعشا رغم الحرارة وارتدى ملابسى دون أن اتنشف . الرمل تسلل الى قميصى والى بنطالى مسلخ قدمى في حذائى .شعرى لازال ملتصقا بالملح .دونيس هو نظر الى دون حركة .وجهه الاملس معتم ولايمكن فهمه .يجلس في ظل صناع المحمل يظل ثابتا يداه تعتمدان على العصى الطويلة حيث يتعلق الكالمار كما النحاس لايذهب ابدا ليستحم في البحر اجهل حتى اذا كان يعرف السباحة هو عندما يتسحم يكون ذلك عند سقوط الليل في اعلى نهر تاماران أو في جدول " حوض ساليه " احيانا يذهب بعيدا نحو الجبال ناحية مانانافا ويغتسل بالنباتات في جداول المضايق يقول أن جده هو الذى علمه ذلك لكى يتتسب القوه لكى يكتسب الرجولة .

أحب دونيس يعرف اشياء كثيرة عن الاشجار والماء والبحر كل ما يعرف تعلمه من جده ومن جدته ايضا عجوز سوداء تسكن كاس نوايال يعرف اسم كل الاسماك وكل الحشرات يعرف كل النباتات التى يمكن اكلها في الغابة وكل الفاكهة المتوحشة وهو قادر على التعرف على الاشجار فقط من رائحتها او هو يمضغ طرف من قشرتها يعرف اشياء كثيرة بحيث لانمل ابدا معه لورا ايضا تحبه كثيرا لانه يحمل اليها دائما هدايا بسيطة ثمرة فاكهة من الغابة او حتى وردة محارة قطعة من الصوان الابيض حجر . فرديناند يسميها "جمعه " ليسخر منا وانا اسمانى رجل الاخشاب لان العم لودوفيك منذ فترة طويلة كان ذلك في بداية صداقتنا دونيس جلب للور حيوان صغير رمادى غريب تماما بخرطوم طويل مدبب وقال

انه كان فأرا برائحة المسك لكن والدى قال انه كان ببساطة فأر الديدان لور احتفظت به معها طوال اليوم ونامت على فراشة في علبة صغيرة من الكرتون لكن في المساء وقت الن م استيقظ واخذ يجرى في كل مكان واحدث كثيرا من الضجيج حتى جاء والدى بقميص النوم حاملا شمعته في يده وأبدى عضبه وطرد الحيوان الصغير خارجا بعد ذلك لم نره من جديد أبدا اعتقد ان هذا تسبب في الم كبير للورا .

عندما تكون الشمس عالية جدا في السماء يقف دونيس ويخرج من ظل صناع المخمل ويصيح : " آلى ييي! " هذه هى طريقته في نطق إسمى عندئذ نسير بسرعة عبر حقول القصب حتى لوكان يتوقف دونيس لكى يأكل في كوخ جده وأنا اجرى نحو البيت الكبير ذو السقف الازرق السماوى .

عندما يطلع النهار وتضىء السماء خلف جبال " الاثداء الثلاثة " أذهب مع ابن عمى فرديناند بطول طريق الارض الذى يتجه نحو حقول سكر "يمين " ونحن نتسلق الجدران العالية ندخل في " الصيادات " حيث تعيش الثعابين المقاطعات الكبيرة فولمر تاماران ماجون بارفوت فالالا فارديناند يعرف الى اين يذهب والده ثرى جدا صحبه في كل المقاطعات ذهب ايضا بيوت تاماران إيستات حتى فولمر وميدين في الشمال تماما ممنوع الدخول فوق " الصيادات " ابى كان سيغضب جدا اذا كان علم اننا نذهب الى المقاطعات يقول ان هنا خطر لامكان وجود صيادين وأننا يمكن ان نقع في جب لكنى اعتقد أن سبب ذلك تحديدا لانه لايحب سكان الاملاك الكبرى يقول ان كل شخص يجب أن يبقى في محيطه ولا يجب الا يجور على اراض الغير .

نسير بحذر كما لو كنا على ارض اعداء على البعد في شوك الغابة الرمادى نلمح بعض الاشكال السريعة التى تختفى تحت المخبأ إنها الثعابين .

ثم يقول فرديناند أنه يريد أن يهبط حتى " تاماران إيستات " تخرج من " الصيادات " ونسير من جديد على طريق الارض الطويل لم أذهب ابدا بعيدا الى هذا الحد فقط ذات يوم مع دونيس صعدت حتى أعلى برج تاماران " هنا حيث ترى كل المنظر حتى جبال " النهود الثلاثة " وحتى " مورن " ومن هنا رأيت اسقف البيوت ومدخنة مصنع السكر العالية التى تخرج دخانها الكثيف .

الحرارة تزيد بسرعة لاتنافى هجود الصيف حقول القصب مرتفعة جدا منذ ايام كثيرة بدأوا ف القطع على امتداد الطريق تشبك في العرات التى تسحبها الابقار والتى ترتج تحت ثقل القصب شباب من الهنود هم الذين يقودونها بملامح لامبالية كما لو كانوا نائمين الهواء ملىء بالذباب وذباب البقر فرديناند يسير بسرعة اعانى من اللحاق به كل مرة تجىء فيها عربة نقفز ثانيا في الهوة لوجود مكان بها للعجلات الحديدية المستديرة الضخمة .

الحقول مليئة بالرجال والنساء الذين يعملون الرجال معهم سيوف قطع الاشجار ومناجل والنساء يذهبن مع مجارفهن يرتدين رؤوسهم مختفية في حقائب قديمة من القنب الرجال عراة مفتولين يتصببون عرقا نسمع صيحات نداءات اوها ! التراب الاحمر يصعد من الطرق بين مربعات القصب رائحة جافة تملأ الهواء رائحة ماء القصب والتراب وعرق الرجال سكارى الى حد ما نسير نعدو في إتجاه بيوت " تاماران " هنا حيث يتم تحميل لا احد يهتم بنا توجد كمية من التراب فوق الطرق بحيث اصبح لوننا احمر من الاقدام حتى الرؤوس واصبحت ملابسنا شبيهة بالهلاهيل يوجد اطفال يعدون معنا فوق الطرق وهنود وكفار بأكلون القصب الذى يسقط على الارض الخصبة الجميع يتجهون نحو مصنع السكر ليشاهدون المراحل الاولى للعصر .

تصل اخيرا امام النباتات أشعر بشىء من الخوف لنها المرة الاولى التى اجىء فيها الى هنا امام الجدار المرتفع المزين بالجبس توقفت العربات والرجال يحطون القصب الذى سيلقون به في الاساطين المدخنة تقذف دخنة كثيفة شقراء تعتم السماء وتخنقنا عندما يدفعها الريح نحونا الضجيج يملأ المكان وكمية كبيرة من البخار أمامنا تماما ارى فريق الرجال الذى يضع في الفرن تفل قصب السكر الذى يسحق في الاتون أنهم شبه عرايا كما العمالقة العرق يتصبب على ظهورهم السوداء على وجوههم المتشنجة بألم النار لايقولون شيئا يمسكون فقط بالتخل في اذرعتهم ويلقون به في الاتون وهم يصيحون في كل مرة :هان .

لم أعد اعرف اين هن فرديناند أظل مذهولا وأنا انظر الى دخنة السبك ودون الصلب الضخم الذى يغلى مثل مرجل العملاق والآلات التى تسحب الاسطوانات داخل مصنع السكر يوجد رجال يشتغلون يلقون القصب الطازج بين فكى الاساطين ويستعيدون القصب المسحوق لاستخلاص ماء النبات منه ايضا يسود ضجيج شديد وحرارة وبخار بما يدير رأسى العصير النقى يسيل على الاسطوانات يذرف نحو الدنان التى تفور عند مركز الفصل يوجد الاطفال المح فرديناند الذى ينتظر واقفا امام الدن الذى يدور ببطء بينما الشراب السميك يصل الى حد التبريد يوجد عباب كثير من الدن والسكر يسكب على الارض يتعلق بالروبة السوداء التى تتدحرج على الارض المغطاه بالاوراق والقش الاطفال يلقون بأنفسهم وهم يصيحون يجمعون قطع السكر ويحملونها الى خلوة لكى يمصونها في الشمس أنا ايضا أترقب امام الدن وعندما يفور السكر ويتدحرج على الزراعية اتحفز واتناول بيدى العجين الملتهب المغطى بالاعشاب وبقطع التفل أحملة الى الخارج والعقة مقرفصا في التراب وانا انظر الى الكثافة المدخنة الشقراء التى تخرج من المدخنة ضجيج وصيحات الاطفال وهرج الرجال كلهذا يصيبنى بشىء من الحمى التى تجعلنى اضطرب هل هو ضجيج الآلات والبخار الذى يصفر هل هى الدخنة الشقراء الجافة التى تغشانى وحرارة الشمس وطعم السكر الملتهب الشديد ؟ تضطرب رؤيتى اشعر بأنى سأتقيأ انادى ابن عمى للنجدة لكن بح صوتى ومزق حلقى انادى أيضا دونيس ولور

لكن لا احد يهتم حولى حشد الاطفال يهرع دون توقف بالقرب من الدن الكبير الذى يدور حول نفسه ترقبا للحظة التى تفتح فيها الصمامات بينما ينفذ الهواء وهو يصفر داخل الافران ويصل موج الشرار الفائر الذى يفيض بطول المزاريب كنهر اصهب اشعر فجأة بضعفى بأنى ضائع اسند رأسى على ركبتى واغلق العينين .

ثم اشعر بيد تربت على شعرى اسمع صوتا يحدثنى بهدوء " لماذا البكاء " من خلال دموعى ارى إمرأة هندية كبيرة وجميلة ملفوفة في ملابسها الملطخة بالارض الحمراء تقف امامى مستقيمة هادئة دون أن تبتسم وأعلى جسدها لايتحرك بسبب المسحاة التى تضعها بالتساوى على شيفون مطوى فوق رأسها تحدثنى بهدوء تسألنى من اين اجىء والانا سير معها على الطريق المزدحم يضيق بها ثوبها وهى تشعر بارتجاج خلفيتها البطىء عندما تصل امام مدخل " بوكان " في الناحية الاخرى من النهر تصحبنى حتى بيت الكابتن كوك ثم ترحل في الحال دون أن تنتظر مكافأة ولا شكر وتبتعد وسط الممر الكبير بين تفاح الورد وأنا انظر اليها وهى تذهب مستقيمة تماما بالمسحاة المتساوية فوق رأسها .

انظر الى البيت الخشبى الكبير مضاء بشمس مابعد الظهيرة بسقفة الازرق أو الاخضر بلون بالغ الجمال أتذكرة اليوم كلون سماء السحر اشعر ايضا على وجهى بحرارة الارض الحمراء والفرن انفض التراب ونبت الحيات التى تغطى ملابسى عندما اقترب من البيت اسمع صوت الام التى تسمع صلوات للور في الظل كم هى عذبة نقية تلك الدموع التى لاتزال تسيل من عينى ويأخذ قلبى في الدق بمنتهى القوة اسير نحو البيت حافى القدمين على التربة المتداعية بالجفاف . اذهب حتى حافظ الماء خلف المقلاد اغترف ماء البركة العفن بالوعاء المزين واغسل يدى ووجهى وكوعى وفخذى وقدمى الماء الرطب يهيج إتقاد الخدوش وجروح نصال اوراق قصب السكر في كل مساحة الحوض ينتشر الذباب وعناكب الماء وعلى امتداد الحواجز يعكف الدود اسمع زقزقة عصافير العصارى العذبة اشعر برائحة الدخنة التى تهبط على الحديقة كما لو كانت تعلن عن الليل الذى يبدأ في مجارى " مانانافا " ثم اذهب حتى شجرة " لور " عند حافة الحديقة وشجرة " شالتا " الضخمة شجرة الخير والشر كل ما أشعر به كل ماراة إذن يبدو له خالدا لااعلم أن كل هذا سيختفى قريبا يوجد أيضا صوت " الماما " هذا هو كل مأعرفة عنها الان هذا هو كل إحتفظت به منها . القيت بكل الصور الصفراء والبورتريهات والرسائل والكتب التى كانت تقرأها لكى لايضطرب صوتها أريد أن اسمعه دائما مثل كل الذين نحبهم ولم نكن نعرف وجوههم على الاطلاق صوتها رقه صوتها الذى يحتوى على كل شىء حرارة يديها رائحة شعرها ثوبها الضوء ما بعد الظهيرة وهو يرحل عندما تكون قد عدنا لور وأنا تحت الشرفة والقلب لايزال يخفق من الجرى وقد بدأ التدريس "ماما " تتحدث بهدوء شديد ببطء شديد ونحن نستمع معتقدين اننا هكذا فهمنا لور اكثر ذكاء منى ماما تردد هذا كل يوم تقول أنها

تعرف كيف تطرح الاسئلة عندما ينبغى تقرأ كل في دورة واقفا امام ماما التى تتهدهد في مقعدها الوثير على ارجوحة ابنوسية تقرأ ثم تسأل ماما اولا عن القواعد تصريف الافعال توافق اسماء الفاعل والمفعول والصفات بعد ذلك تسألنا معا عن معنى ما قمنا بقراءته عن الكلمات والتعبيرات تطرح اسئلتها بعناية واسمع صوتها بسعادة واهتمام لانى اخاف ان اخيب املها اخجل من عدم الفهم بسرعة لور نفسها ويخيل الى اننى لا استحق هذه اللحظات من السعادة وعذوبة صوتها وعطرها وضوء اخر النهار الذى يزين البيت والاشجار والذى تجىء من نظراتها وكلماتها .

منذ اكثر من عام ماما هى التى ترعانا لانه لم تعد لنا مربية اخرى فيما مضى اتذكر بالكاد كانت توجد مربية تجىء من " فلوريال " ثلاث مرات في الاسبوع لكن إنهيار ابى المتفاقم لايسمح أبدا بهذه الرفاهية أبى كان يريد أن يودعنا في بنسيون لكن ماما لم تشأ قالت أننا كنا صغارا جدا لور وأنا إذن هى التى تضطلع بتربيتنا كل يوم في المساء وأحيانا في الصباح تعلمنا ماكنا في حاجة الية : الكتابة القواعد بعض الحساب والتاريخ المقدس أبى كان يشك في البداية في قيمة هذه التربية لكن في أحد الايام دهس جوزيف ليتان المدرس الاول بالكلية الملكية من معلوماتنا حتى انه قال لبى أننا كنا متقدمين جدا بالنسبة لعمرنا ومنذ هذا الحين قبل ابى بشكل مطلق هذه التربية .

مع هذا لن استطيع ان اقول اليوم كيف كانت حقيقة هذه التربية كنا نعيش حينئذ أبى وماما ولور وأنا مغلقين في عالمنا في " قاع بوكان " تحده من الشرق أحرف الجبال المقطعة في " الأثداء الثلاثة " من الشمال المزارع الشاسعة من الجنوب اراضى النهر الاسود البائرة ومن القرب البحر في المساء عندما تصيح العصافير على اشجار الحديقة الضخمة يسمع صوت ماما الرقيق والشاب وهو يملى قصيدة اويتلو صلاة ماذا تقول ؟ لا اعلم على الاطلاق معنى كلماتها إختفى مثل صيحات العصافير وضوضاء ريح البحر فقط تظل الموسيقى ناعمة خفيفة تكاد تكون غير مفهومة متحدة بالضوء فوق اوراق الاشجار في ظل الشرفة وفي عطر المساء .

استمع اليها دون ملل اسمع صوتها يرتج في وقت غناء العصافير نفسه احيانا أرقب إختلاس الزرازير كما لو كان مرورها بين الاشجار نحو خفايا الجبال يشرح درس ماما هى من وقت الى اخر تجعلنى اعود على الارض وهى تنطق اسمى ببطء مثلما كانت تعرف كيف تنطقة ببطء لدرجة أن اتوقف عن التنفس .

" اليكسى ...؟ اليكسى ؟ "

هى وحدها مع دونيس اللذان يناديانى باسمى الاول الاخرون يقولون ربما لان لور هى اول من جاءته الفكرة : آلى أبى لاينطق أبدا أى اسم ماول فيما عدا ربما اسم ماما كما سمعته مرة او مرتين . كان يقول بصوت منخفض : آن آن وعندئذ فهمت : آم " أى روح او ربما انه كان يقول حقا : روح بصوت عذب ورصين لم يكن له الا عندما يتحدث اليها كان يحبها حقا كثيرا .

ماما جميلة في هذا الوقت لن استطيع ان اقول الى اى حد هى جميلة اسمع جرس صوتها وافكر على الفور في ضوء المساء في " بوكان " تحت الشرفة محاطة بانعكاسات البامبو وفي السماء الصافية التى تخترقها اسراب العصافير اعتقد ان كل جمال هذه اللحظة مصدرة هى وشعرها الكثيف والمكوف بسمرة صهباء قليلا تجلب أقل لمعان للضوء ولعينيها الزرقاوين ولوجهها الذى لايزال ممتلأ فتيا وليديها الطويلتين والبساطة بكثير من الضوء أنظر خفية الى أختى لور الجالسة باستقامة شديدة على مقعدها قبضتاها مستندتين على حافة المائدة امام كتاب الحساب والكراسة البيضاء التى تحتفظ بها مفتوحة بأطراف اصابع اليد اليسرى تكتب بعناية الرأس يميل قليلا على الكتف الايسر شعرها الكثيف الاسود يخفى ناحية من وجهها الهندى لاتشبه ماما لايوجد شىء مشترك بينهما لكن نظرة عينى لور السوداوين تلمع مثل الاحجار وأعلم انها تشعر باعجابى ذاته بالحرارة ذاتها المساء طويل إذن وضوء الغسق الذهبى يميل شيئا فشيئا على الحديقة يجذب اسراب العصافير ويحمل من بعيد صيحات العاملين في الحقول وضجة الدواب على طرق القصب

كل مساء درس مختلف قصيدة حكاية مسألةجديدة غير ان اليوم يخيل الى انه دون توقف الدرس نفسه تعترضه مغامرات النهار الساخنة والتسكعات حتى شاطىء البحر او احلام الليل متى يوجد كل هذا ؟ماما منحنية على المائدة تشرح لنا الحساب وهى تضع امامنا اكواما من اللوبياء " ثلاثة هنا آخذ منها إثنين يكونان ثلثين . ثمانية هنا واجنب منها خمسة الناتج خمس الثمانية عشرة هنا آخذ منها تسعة ماذا يتبقى ؟ " اجلس امامها انظر الى يديها الطويلتين بأصابع نحيلة اعرفها جيدا واحدا واحدا سبابة اليد اليسرى قوية جدا والاوسط والبنصر بشكل حلقة في نهايته شريط ذهبى إستهلكه الماء والزمن اصابع اليد اليمنى اكبر اكثر خشونة واقل رقه والخنصر الذى تعرف كيف ترفعة عاليا جدا عندما تجرى اصابعها الاخرى فوق السلسلة العاجية لكنها تضرب فجأة علامة حارة " اليكسى . أنت لاتسمع .. لاتسم عابدا لدروس الحساب لن تستطيع ان تلتحق بالكليى المكلكية " هل تقول هذا ؟ كلا لا اعتقد لور هى التى تخترع هذا كم هى دؤوبة دائما وصادقة دوما في إعداد اكوام اللوبياء لأن هذه هى الطريقة الخاصة للتعبير عن حبها لماما .

اكسب مع الاملاء ما خسرته . لحظة ما بعد الظهيرة هى التى افضلها عندما اميل على صفحة كراستى البيضاء ممسكا بالقلم في يدى في إنتظار مجىء صوت ماما يستنبط الكلمات كلمى كلمة ببطء شديد كما لو كانت تهبها لنا كما لو كانت ترسمها بتصاريف المقاطع توجد مالكلمات الصعبة التى إختارتها بعناية ذلك لانها هى التى بتبتدع نصوص الاملاء الخاصة بنا " كاره " بمعنى عربة " منفذ " بمعنى نافذة " قوس قزح " نزهة فارس " " جبيرة " " معبر " "ملمح " وبالتأكيد من وقت الى اخر لكى تضحكنا تقول كلمات بالنهايات ذاتها مثل أى : القمل الكرنب البوم المجوهرات اكتب دون إستعجال بقدر ما استطيع لكى اطيل الوقت الذى يدوى فيه صوت ماما في صمت الورقة البيضاء في انتظار اللحظة ايضا التى ستقول لى فيها بايماءة صغيرة من رأسها كما لو كانت المرة الاولى التى تلاحظها :

" خطك جميل "

وعلى الفور تستعيد القراءة لكن بايقاعها وهى تبين الفواصل بوقفة قليلة وفترة صمت بالنسبة للنقط وهذا الامر لايمكن ان يتوقف إنها حكاية طويلة تلك التى تحكيها مساء بعد اخر حيث تتكرر الكلمات ذاتها والموسيقى ذاتها لكن مشوشة موزعة بطريقة مختلفة في المساء وأنا نائم على فراشى بالكامب تحت غلالة الناموسية تماما قبل ان استغرق في النوم اسمع الضجيج العائلى صوت ابى الخشن وهو يقرأ مقالا بالجريدة او هو يتناقش مع ماما والخالى آديلاييد وضحكة ماما الخفيفة واصوات السود البعيدة وهم جالسون تحت الاشجار يرقبون ريح البحر في قمم الاشجار الساقبة انها الحكاية اللامتناهية ذاتها التى تعود الى مليئة بالكلمات والاصوات تمليها ماما ببطء احيانا النبرة التى تضعها على حرف او الصمت الطويل جدا الذى يضخم كلمة وضوء نظرتها اللامعة على عبارات غير مفهومة وجميلة اعتقد أنى لا استغرق في النوم الا عندما أرى هذا الضوء يلمع وعندما الحظ هذا الشرر كلمة لاشىء غير كلمة أحملها معى في منامى .

أحب أيضا دروس ماما الاخلاقية دائما كل صباح أحد مبكرا قبل تلاوة الصلاة أحب الدروس الاخلاقية لان ماما تحكى دائما حكاية جديدة كل مرة تدور في اماكن نعرفها بعد ذلك تطرح علينا اسئلة على لور وعلى ليست اسئلة صعبة لكنها تطرحها ببساطة وهى تنظر الينا واشعر بزرقة نظرتها العذبة للغاية والتى تنفذ الى اعمق أعماقى .

" هذا يحدث في دير حيث تقيم دستة من النزيلات إثنتا عشر فتاة صغيرة يتيمات مثلما كنت عندما كنت يفي عمركما . في المساء أثناء العشاء هل تعلمان ماذا كان على المائدة ؟ في صحخن كبير سردين ويحين هذا كثيرا إنهم فقيرات هلى تفهمان بالنسبة لهن السردين عيد أو بالضبط يوجد في الصحن سردين بقدر اليتيمات أثنا عشر سردينة عندما أكل الجميع اشارت الاخت الى السردينة الاخيرة التى تبقت وسط الصحن وسألت : من التى

ستأكلها ؟ هلى توجد بينكن واحدة تريدها ؟ ولا يد ترتفع ولاواحدة من مالفتيات الصغيرات تجيب حسنا تقول الاخت بابتهاج هذا ماسنفعلة سننفخ في الشمعة وعندما يسود الظلام من سترغب في السردينة يمكنها ان تأكلها دون خجل . تطفىء الاخت الشمعة وماذا يحدث ؟ كل واحدة من الفتيات الصغيرات تمد يدها يفي الظلام لكى تأخذ السردينة فتلتقى بيد فتاه صغيرة اخرى يوجد إثنتا عشر يد صغيرة ممدودة يفي الصحن الكبير ! .

إنها الحكاية التى تحكيها ماما لم اسمع أبدا حكايات اجمل منها ولا ابشع منها .

لكن ما احبة كثيرا في الحقيقة التاريخ المقدس أنه كتاب مجلد بجلد احمر غامق كتاب قديم على غلافة شمس ذهبية يتفجر منها إثنتا عشر شعاعا احيانا تتركنا ماما ننظر اليه لور وأنا نقلب الصفحات ببطء شديد لكى ننظر الى الصور ولكى نقرأ الكلمات المكتوبة أعلى الصفحات وسير القديسين توجد نقوش احبها اكثر من كل شىء مثل برج بابل او التى تقول : " النبى جوناس يبقى ثلاثة ايام في حوت ويخرج منه حيا " على البعد بالقرب من خط الافق سفينة كبيرة بأشرعة تختلط بالسحب وعندما اسأل ماما عمن يفي هذه السفينةلا تستطيع أن تجيبنى يخيل الى اننى يوما ما سأعرف عمن كان يسافر يفي هذه السفينة الكبيرة لكى المح جوناس في اللحظة التى يغادر فيها بطن الحوت أحب ايضا عندما اظهر الله على المسيح أسلمة في الهواء وسط السحبومعركة اليازار ضد انتيوكوس حيث رأى احدهما فيلا مخيفا يدفق بين المحاربيين . ماتفضله لور البدايات خلق اللرجل والمرأة والصورة التى يرى فيها الشيطان في شكل ثعبان برأس أنسان يلتف حول شجرة الخير والشر وهكذا عرفت انها كانت شجرة شالتا الموجودة عند حافة حديقتنا لان لها الاوراق ذاتها والفاكهة ذاتها لور تحب كثيرا ان تذهب حتى الشجرة يفي المساء تصعد على الفروع الرئيسية وتقطف الفاكهة ذات الجلد مالسميك التى حرم علينا أكلها لاتتحدث عن ذلك الا معى . ماما تقرأ علينا قصص الكتابة مالمقدسة وبرج بابل هذه المدينة التى كان مالبرج فيها يطول السماء وتضحية ابراهيم او ايضا قصة يعقوب الذى باعة إخوته حدث ذلك في عام ٢٨٧٦ قبل الميلاد إثنتا عشر عاما قبل موت إسحق . أتذكر جيدا هذا التاريخ أحب ايضا كثيرا قصة موسى الذى انقذ من الماء لور وأنا نطلب دائما من ماما أن تقرأها لنا لمنع جنود فرعون من قتل إبنها وضعته أمه في " مهد صغير من الجزيران المشبك " كما يقول الكتاب " وعرضته عل ضفاف النيل " عندئذ جاءت أبنه فرعون على ضفاف النهر " لكى تستحم مصحوبة بكل خادماتها وما أن لمحت سله الخزيران هذه اراد فضولها معرفة الامر فأرسلت واحدة من فتياتها لحملة .وعندما رأت هذا الصغير الذى كان يصيح في المهد أخذتها الشفقة نحوه وزاد من حنانها جمال الطفل فعزمت على انقاذة نسمع القصة عن ظهر قلب ونتوقف دائما عند تبنى إبنه فرعون للطفل واعطائه اسم موسى لانها كانت قد انقذته من المياه . توجد قصة احبها بصفه خاصة هى قصة ملكة سابا لا ادرى لماذا تحبها لكن من كثرة التحدث عنها وصل بى الامر الى جعل لور تحبها هى الاخرى ماما تعلم هذا

واحيانا تفتح بابتسامة الكتاب الكبير الاحمر على هذا الفصل وتبدأ في القراءة اعرف كل عبارة عن ظهر قلب واليوم ايضا " بعد أن شيد سالومون للرب معبدا غاية في الروعة شيد لنفسه قصرا استمر بناءة اربعة عشر عاما حيث يلمع الذهب من كل اتجاه وحيث تخطف ابصار الجميع روعة الاعمدة والنحت .." وهنا تظهر ملكة سابا " التى تجىء من اعماق الوسط لمعرفة ما اذا كان كل ماقيل عن هذا الامير الشاب صحيحا جاءت في هيئة رائعة وحملت لسالومون هدايا نفيسة مائة وعشرين ثقلا من الذهب يقدر بحوالى ثمانية مليون جنيها مجوهرات نادرة وعطور لم نر مثلها ابدا " ليست الكلمات هى التى المحها لكن صوت ماما يصحبنى داخل قصر سالومون المنتصب على عرشة بينما الملكة سابا رائعة الجمال تقود العبيد الذين يدحرجون الكنوز على الارض . لور وأنا نحب كثيرا الملك سالومون حتى وأن لم نعلم لماذا في نهاية حياته انكر الله ليعبد الاصنام ماما تقول وهكذا حتى الاكثر عدلا والاكثر قدرة بين الرجال من الممكن ان يرتكبون معاصى لانفهم كيف يكون ذلك ممكنت لكنت نحب ردة للعدالة وهذا القصر البديع الذى شيدة حيث جاءت الملكة سابا لكن مانحبة ربما يكون الكتاب بغلافة الجلدى الاحمر وهذه الشمس الذهبية الكبرى وصوت ماما العذب الهادىء وعينيها الزرقاوين اللتان تنظران بين كل عبارة وضوء الشمس الذهبية فوق اشجار الحديقة ذلك انى لم اقرأ ابدا كتابا اخر كان له تأثيرا عميقا الى هذا الحد .

في فترات ما بعد الظهيرة عندما تنتهى دروس ماما مبكرا نذهب لور وأنا لننفس في محتويات البيت يوجد سلم خشبى صغير يصل حتى السقف ويكفى دفع باب تحت الاسقف اللون رمادى والحرارة خانقة لكنا نحب ان نبقى هنا عند حافة كل صندرة توجد كوه مستقيمة بدون زجاج مغلقة بمصاريع متفسخة عند ما نفتح المصاريع نرى المنظر بعيدا جدا من ناحية مزارع القصب " اليمان " وم " ماجنتا ، وسلسلة الجبال والاثداء الثلاثة وجبل روميار .

أ حب أن ابقى هنا في هذا المخبأ حتى ساعة العشاء وحتى وقت متنأخر عندما تجىء الليل مخبأى هو نهاية جزأ تماما عند حافة السقف من ناحية الجبال يوجد كثير من الاثاث الملىء بالتراب الذى قرضة دود الخشب وهو كل مابقى ممكا كان جدى الاكبر قد اشتراهبصحبة الهنود اجلس على مقعد خياطة منخفض جدا وانظر من خلال الكوة نحو سيرك الجبال الذى يظهر في الظل في وسط الصندرة توجد صناديق كبيرة مليئة بالاوراق القديمة ومجلات فرنسا مربوطة يفي حزم بالخيط هنا وضع ابى كل جرائدة القديمة كل سته شهور بعد لفافة يضعها على الارض بالقرب من الصناديث هنا تجىء لو روانا دائما لتقرأ ونشاهد الصور ننبطح على البطن في التراب امام اكوام الجرائد القديمة ونقلب ببطء الاوراق توجد " جريدة السفر مع رسم دائم في الصفحة الاولى يقدم مشهدا غير عادى إصطياد نمر في الهند أو كذلك هجمة " الزولوس " الوثنيين ضد الانجليز أو أيضا هجوم هنود الجنوب على

السكة الحديد في اميركا في الداخل لور تقرأ بصوت مرتفع مقاطع من " روبنسون مارسيييه رواية مسلسلة تحبها كثيرا الجريدة التى نفضلها هى " اخبار لندن المصورة " وبما أنى افهم الانجليزية خطأ أطالع الصور باهتمام اكبر لكى اخمن ما يقوله النص لور بدأت تعلم الانجليزية مع ابى وهى تشرح لى المعنى ونطق الكلمات لانظل كثيرا لان التراب يجعلنا نعطس على الفور ويؤدى عيوننا ومع هذا تبقى احيانا لساعات أيام الاحد بعد الظهر عندما يكون الطقس حارا جدا في الخارج أو أن الحمى تجبرنا على البقاء في البيت

في الجرائد الخالية من الصور اطالع الدعاية الخاصة بالمغسلة الباريسية وصيدلية A فلورى وA تولورج ودخان كورنجى الحبر الازرق الاسود ساعات الجيب الاميركية الدراجات التى تجعلنا نحكم مع لور العب بشراء اشياء أنها الدعاية التى تمدنا بالافكار .لور كانت تريد دراجة دراجة حقيقية مزينة بالمينا السوداء وبعجلات مجهزة بالمكاط وجادون من الكروم مثلما نراه عندما نذهب بالقرب من " شان دومارس " بيور لوى بالنسبة لى توجد اشياء كثيرة تجعلنى ارغب فيها مثل كراسات الرسم ماملكبيرة والرسومات و" مخزن ويمغان " أو براءات الصفائح الاثنى عشر لصناعة الاسالحة لكن لايوجد شىء رغبت فيه اكثر من ساعة الجيب " فافرلوبا " القادمة من جنيف .أراها دائما في المكان نفسه بالجرائد في الصفحة قبل الاخيرة بالعقارب التى تسجل الوقت ذاته وعقرب الثوانى على منتصف اليوم أقرأ دائما بالمذاق نفسة عبارات الدعاية التى تصفها " ضد الكسر " لاينفذ اليها الماء ولا الهواء مصنوعة من الصلب غير يالقابل للتأكسد وجه منقوض بالمنيا عجيبة من حيث الدقة والقوه مستعدة لخدمتك مدى الحياة ".

هكذا نحلم في مخبأنا تحت الاسقف التى حققتها الشمس يوجد ايضا المنظر كما اراه من خلال النافذة المنظر الوحيد مالذى اعرفه واحبة ولا اقبل عليه ابدا بهاتين العينين عبر اشجار الحديقة المظلمة ومساحة حقول القصب الخضراء ويقع صبر " والهلا " اليمن الرمادية والزرقاء مداخن مصانع السكر التى تطلق دائرى احمر اللون متلالىء حيث تنتصب اذرع الاثداء الثلاثة في مواجهة السماء ورؤوس البراكين مدببه وخفيفة تشبه ابراج قصر الجنيات انظر اليها من خلال نافذة السقف الضيقة دون ملل كما لو كنت رقيب باخرة رأسية ترسل بعض الاشارات اسمع ضجيج البحر في اعماقى وخلفى يحمله ريح المستنقعات انا في الحقيقة داخل باخرة في حين تخبط اخشاب ودعامات الهيكل تجدف دائما خط الجبال هنا سمعت البحر لاول مرة وهنا احسست به من جديد بشكل افضل بصفائحة الطويلة التى تدفع مقدمة الممر مصب النهرين وتفجر عاليا الزبد فوق حواجز المرجان .

الهيكل تجدف دائما امام خط الجبال هنا سمعت البحر لأول مرة وهنا احسست به من جديد بشكل افضل بصفائحة الطويلة التى تدفع مقدمة الممر امام مصب النهرين وتفجر عاليا الزبد فوق حواجز المرجان .

لانرى احدا ايام بوكان اصبحنا لور وأنا متوحشين حقيقيتين . مأن تمكنا حتى هربنا من الحديقة نسير نحو القصب في اتجاه البحر تهبط الحرارة الحرارة الجافة التى تلسع كما يقول الكابتن كوك هلى تعلم أننا نستمتع بحرية مماثلة ؟ لكنا لانعلم حتى معنى هذه الكلمة لانترك قاع بوكان هذه المقاطعة الساحرة المحاطة بالنهرين والجبال والبحر .

الآن وقد بدأت فترة الاجازات الطويلة يجىء أبن عمى فرديناند دائما عندما ينزل العم لوفيك على املاكة في بارفوت ويمان .فرديناند لايحبنى ذات يوم اسمانى " رجل الغابات " مثل أبيه وتحدث ايضا عن " جمعة " بسبب دونيس قال " حذر " روح وجسد اسودين وغضبت برغم انه اكبر منى بشهرين قفزت فوقه وحاولت أن أدك عنقه لكنه قفز فوقى بسرعة وضغط على رقبتى بتجويف ذراعة حتى شعرت بتكسير عظامى وبدموع تملآ عينى لم يعد الى " بوكان " منذ ذلك اليوم أنى اكرهه واكره أباه ايضا العم لودفيك لانه ضخم وقوى ويتحدث بصوت مرتفع وينظر الينا دائما بعينين سوداوين شاخرتين ومساحة إبتسامته متشنجة . اخر مرة جاء الينا فيها ابى كان غائبا ولم تشأ أمى أن تراه جعلتنا نقول أنها مصابة بحمى وأنها كانت متعبة العم لودفيك جلس رغم ذلك في قاعة الطعام على أحد مقاعدنا القديمة الذى تكسر تحت جسدة وحاول أن يتحدث الينا لور وأنا مال على لورا تذكر ذلك وقال لها " ما أسمك ؟ " عيناه السوداوان كانتا تلمعان عندما كان ينظر الى ايضا لور كانت شاحبة تجلس مستقيمة تماما على مقعدها وكانت تنظر بتركيز أمامها دون أن تجيب ظلت هكذا وقتا طويلا ساكنة تنظر امامها تماما بينما قال لها العم لودفيك لكى يهاجمها " ماذا ؟ ليس لك لسانا ؟ اما انا فكان قلبى يدق بقوة من الغضب وفي النهاية قلت له " أختى لاتريد ان تجيبك " فوقف دون أن يقول أى شىء اخر تناول عصاه قبعته ورحل سمعت وقع خطواته على ممرات الفالوكة ثم على ممشى الارض المطروقة ثم ضجيج عربته الذى سمعناه وشخشخة جهاز الفرس وزمجرة العجل وشعرنا براحة تامة . منذ ذلك اليوم لم يجىء الينا مرة اخرى إعتقدنا انه كان ضربا من الانتصار في ذلك الوقت لكنا لم نتحدث عن ذلك ابدا لو وأنا ولم يعلم احد عما جرى في تلك الامسية ولم نر ابدا فرديناند في الاعوام التالية فضلا عن ذلك أنه بلا شك في هذا العام عام الاعصار الحق والدة بداخلية الكلية الملكية اما نحن فلم نكن نعلم ان كل شىء سيتغيروأننا كنا نعيش ايامنا الاخيرة في قاع " بوكان " .

أنه في هذا العهد علمنا لور وأنا أن شيئا ما لايسير كما ينبغى في اعمال ابينا . أما هو فم يتحدث لاحد ولا حتى لامنا لكى لايشغلها ومع ذلك كنا نشعر تماما بما كان يحدث كنا نخمن قالت لى لور يوما عندما كنا كما هى العادة تستمر طويلا في السحارة امام رزم الجرائد القديمة .

" إفلاس ماذا تعنى هذه الكلمة افلاس ؟ "

هى لاتطرح على السؤال بما انها تشك تماما يفي أنى اجهله هى كلمى قيلت هنا سمعتها ترن في رأسها فيما بعد رددت كلمات اخرى تخيف ايضا وهن عقارى حجز كمبيالة على ورقة كبيرة قرأت بسرعة وهى على مكتب ابى كلمتين غامضتين بالانجليزية : أصول ومديونيات ماذا يعنى هذا ؟ لور لاتعرف هى الاخرى معنى هذه الكلمات ولاتجرؤ على أن تطلب من ابينا هى كلمات مليئة بالتهديد تحمل في طياتها خطرا لانفهمة مثل الارقام التى تحتها خط والمشطوبة والمكتوب بعضها بالاحمر ممرات كثيرة إستيقظت على ضجيج اصوات في ليل متأخر قميص النوم مبلل بالعرق السائل على جسمى اركض على طول الممر حتى باب حجرة الطعام المضاءة من خلال الباب الموارب اسمع صوت ابى الخشن ثم اصوات اخرى غير معروفة ترد عليه عما يتحدثون ؟ حتى لو سمعت كل كلمة لا اتوصل الى فهمها لكنى لا اسمع الكلمات اسمع فقط ضجيج الاصوات والزجاجات والكراسى التى تقرع ماما ربما تكون هنا هى الاخرى تجلس الى جوار ابى مثلما يفي ساعات الطعام ؟ لكن رائحة التبغ القديمة تخبرنى ماما لاتحب تدخين السيجار يجب ان تكون في حجرتها في فراشها الجلدى تنظر هى الاخرى الى خط الضوء الاصفر الذى يمر من تحت الباب الموارب مستمعة الى ضجيج الاصوات غير المعروفة مثلى انا الذى لبد في ظل مالمعبر بينما يتكلم ابى يتكلم كثيرا واعود بسرعة الى الحجرة وانساب تحت الناموسية .لور لاتتحرك اعلم انها لاتنام وان عينيها مفتوحتان تماما في الظلام وانها تستمع هى الاخرى الى الاصوات في الناحية الاخرى من المنزل ممددا على سريرى ذو السيور انتظر مستعيدا انفاسى حتى اسمع وقع الخطوات في الحديقة وصرير محاور العربة التى تبتعد انتظر ايضا حتى يتناهى ضجيج البحر وجزر الليل غير المرئى عندما يصفر الريح في قمم الاشجار الساقبة ويضرب مصراع النوافذ لدرجة أن هيكل المنزل يءن مثل هيكل سفينة قديمة .عندئذ استطيع أن انام . دروس دونيس هى الاجمل .يعرفنى بالسماء والبحر والكهوف عند سفح الجبال والحقول البائرة حيث نعدو سويا في ذلك الصيف بين اهرامات جدران المستعمرات السوداء احيانا نذهب منذ الفجر بينما لاتزال قمم الجبال قيض زوال النهار والبحر المنخفض على البعد يستعرض حكاياته تمر خلال نباتات الصبر على امتداد الطرق المستقيمة الصامتة . دونيس يسير في الامام ارى خيالة الطويل الدقيق والمرن الذى يتقدم كما لو كان يرقص هنا لايعوى كما يفعل في حقول القصب . من حين الى آخر يتوقف يشبه كلبا إشتم أثر حيوان متوحش أرنب مفترس عندما يتوقف يرفع يده اليمنى قليلا بعلامة وأتوقف أنا الاخر واسمع اسمع ضجيج الريح في الصبر وضربات قلبى ايضا الضوء الاول يلمع فوق الارض الحمراء يضىء الاوراق المعتمة زوال النهار ينتشر على قمم الجبال السماء الان متوهجة أتخيل البحر بلون اللازورد بالقرب من سد المرجان الاسود ايضا عند مصب الانهار " توقف ! " قالها دونيس هو ثابت على مالمضيق يرينى الجبل من ناحية نحور النهر الاسود ارى عصفورا عال جدا في السماء ينساب على الجرى الهوائى رأسه مستدير قليلا في ناحية وذيلة الابيض الطويل يتحرك خلفة " قش – في ذيلة

كما يقول دونيس هى المرة الاولى التى اراه فيها يدور ببطء فوق الشعاب ثم يختفى من ناحية " مانانافا " .

دونيس يواصل السير نتبع وادى " بوكان " المستقيم نحو الجبال نجتاز حقول قصب قديمة هى الان بائرة حيث لايبقى غير الجدران القصيرة لسائل البركان المدفون تحت ادغال الاشواك لم أعد في منطقتى . أنا على ارض غريبة ارض دونيس وسود الناحية الاخرى في " شاماريل " والنهر الاسود " و" كازنوياك " كلما إبتعد دونيس عن " بوكان " وصعد نحو الغاية والجبال يصبح اقل حذرا يتحدث اكثر ويبدو اكثر حرية يسير ببطء الان حركاته اكثر يسرا حتى وجهه ينير ينتظرنى فوق الساحة ويبتسم – يشير الى الجبال القريبة منا ناحية اليد اليمنى " لويس الكبير جبل الارض الحمراء " الصمت يحيط بنا لم يعد هناك ريح لم اعد اشم رائحة البحر الاشواك النابتة كثيفة لدرجة أنه يجب علينا أن نصعد من جديد مهاد السيل خلعت حذائى وشبكته بالبريم حول عنقى مثلما افعل عندما اصبحت دونيس نسير في منطقة الماء البارد على الحصى المدبب في الابازيم يتوقف دونيس يتفحص الماء بحثا عن جمبرى وجراد البحر .

الشمس تكون عالية في السماء عندما نصل الى منبع " بوكان " قريبا جدا من الجبال الشاهقة حرارة يناير ثقيلة اشعر بألم في التنفس تحت الاشجار ذباب متنمر يخرج من ملائمة ويتراقص امام عينى واراه يتراقص ايضا حول شعر دونيس الصوف على منحدر السيل خلع دونيس قميصه وبدأ في قطف الاوراق . اقترب لأرى الاوراق الخضراء الداكنة مكسوه بزغب رمادى خفيف يجنيها في قميصة الذى تحول الى حقيبة " بسرعة خيالية كما يقول دونيس يلقى قليلا من الماء في مجوف ورقة نيبسطها لى على الزغب الدقيق تظل القطرة متجمدة شبيهة بجوهرة سائلة بعيدا اكثر يجنى اوراق اخرى " بسرعة خاطفة " على جذع شجرة يطلعنى على معرشة " معرشة سبعة اعوام " اوراق على شكل كف تفتح على هيئة قلب " يافعة " وكانت تعد ادوية سائلة للحيوانات وكانت تقرع لكنها كانت المرة الاولى التى يصحبنى فيها دونيس عندما يذهب باحثا عن نباتات لها سارة مدغشقرية جاءت من الارض الكبيرة مع كوك جد دونيس عندما كان لايزال هناك عبيدا ذات يوم حكى لنا كوك لور وأنا أنه خاف خوفا شديدا عندما وصل الى بور لوى " مع مالعبيد الاخرين وانه كان معلقا فوق شجرة " الوكالة " ولم يشأ ابدا أن يهبط لانه كان يعتقد انه سيؤكل هنا على الارصفة .سارة عاشت عند النهر الاسود وكانت فيما مضى تأتى لترى اخاها وكانت تحبنا كثيرا لور و أنا الآن هى عجوز جدا .

دونيس يستمر في السير بطول السير نحو المنبع الماء الذى يجرى خفيف اسود واملس على صخر البازلت الحرارة ثقيلة لدرجة أن دونيس يرش وجهه وجسمة بماء الجدول ويقول لى أن افعل الشىء نفسة لكى انتعش اشرب من الجدول نفسه الماء الطازج الخفيف

دونيس يتقدم دائما امامى على طول المجرى المستقيم يضع على رأسة حزمة الورق احيانا يتوقف يشير الى شجرة في كثافة الغابة والى نبات " وعرشة :" نيزوان " " لسان بقرة " غابة زوزو " عطر كبير " غابة نبيذ " " برين " " غابة جدى " " غابة طبل " .

يجنى نبات زاحف له اوراق مستقيمة يستحقه بين أبهامه وسبابتة لكى يشمه " رعى الحمام " بعيدا جدا ايضا يخترق الغياض حتى شجرة كبيرة ذات جذع اسمر ينزع قليلا من القشر البازغ بصوانه فينساب الماء الذهبى يقول دونيس " تاتاماكا " اسير خلفه عبر الاشواك المثنية لتجنب الفروع التى تحلب دونيس ينساب بلا صعوبة وسط الغابة صامتا كل حواسة راصدة تحت قدمى العاريتين التربة ندية وفاترة خائف أنا ومع هذا أريد ان اذهب بعيدا اكثر اغرز في قلب الغابة دونيس يتوقف امام جذع مستقيم تماما ينزع قطعة منالقشرة ويجعلنى اشمها انها رائحة تدير رأسى دونيس يضحك ويقول ببساطة " غابة صمغية " .

نواصل دونيس يسير بسرعة اكثر كما لو كان يعرف الطريق غير المرئى حرارة ورطوبة الغابة تضغطان على صدرى اجد صعوبة في استعارة انفاسى ارى دونيس يتوقف امام دغل :" فستق كستنائى في يده قرن مفتوح قليلا يتجنب به بذورا سوداءهى ذات مرارة زيتية لكن هذا يمنحنى القوة يقول دونيس :" أنها المرة الاولى التى يحدثنى فيها عن ساكالافو" قال لنا ابونا ذات مرة أنه مات هناعند سطح الجبال عندما قبض عليه " البيض " القى به من اعلى الصخر بدلا من أن يحاكم اصابنى هذا بانطباع غريب أن يأكل المرء ما اكله هو هنا في هذه الغابة مع دونيس نحن الان بعيدا ن عن الجدول تماما عند سطح جبل " الارض الحمراء " الارض جافة والشمس حارقة خلال اوراق شجر الطلح الخفيفة .

يقول دونيس :"رجل دجاجة " خيار".

يتوقف فجأة وجد ماكان يبحث عنه يتجه مباشرة الى الشجرة وحده وسط الشوك انها شجرة جميلة ظليلة ذات فروع منخفضة ومنبسطة تحمل اوراقا سميكة خضراء لها انعكاسات نحاسية إنبطح دونيس ارضا تحت قدم الشجرة المختبأة يفي الظل عندما إقترب لانيظر الى وضع حزمته على الارض .

" ماهذا ؟"

دونيس لايجيب مباشرة يبحث في جيوبة .

يقول : تفتت ".

يده اليسرى تمسك بشىء ما دونيس يغنى قليلا بصوت منخفض دون ان يقف كما يفعل الهنود يفي الصلاة يمرجح جسمة من الامام الي الخلف ويغنى بصوت منخفض في ظل

الشجرة ولا أرى غير ظهرة الذى يلمع من العرق عندما أنهى قبضته اليسرى تتفرج وأرى على الكف فلسا العملة تنساب وتقع في عمق الحفرة ويغطيها دونيس بعناية بالارض وبقليل من الشيبة التى يأخذها من الجذور ثم يقف ودون أن ينشغل بى يجنى اوراق الفروع المنخفضة ويضعها على التربة بالقرب من الحزمة يفصل بظرره المدبب قطعا من الجذع الاملس يسيل من الجرح لبنا رائقا .دونيس يضع اطراف القشر والاوراق المفتتة في قميصة ثم يقول :" هيا " ودون ان ينتظرنى يبتعد سريعا عبر الاشواك .يهبط من جديد منحدرات التلال نحو وادى " بوكان " الشمس اصبحت يفي الشرق ارى من فوق الاشجار شائبة نار البحر والافق حيث تولد السحب خلفى متراس الجبال الاحمر يعكس الحرارة كما لو كان فرنا . اسير سريعا على أثار دونيس حتى الجدول الذى هو نبع " بوكان " ويخيل الى انى رحلت منذ زمن طويل ربما لايام وهو ماسبب لى دوارا .

أنه في غضون ذلك الصيف من عام الاعصار ماحدا بأبى الى خوض غمار تحقيق مشروعة القديم الخاص بمعمل انتاج الكهرباء في النهر الاسود .متى بدأ هذا حقيقة ؟ لم إحتفظ في هذا الشأن بذكرى محددة لأن ابى كانت لدية في ذلك الوقت عشرات المشروعات المختلفة التى كان يحلم بها في صمت ولم نلاحظها لور وأنا فيما عدا اصداء مخففة كان لدية فيما اعتقد مشروع مصنع سفن عند مصب النهر الاسود وايضا مشروع منطاد لنقل الاشخاص بين ارخبيل ماسكارانى الهندى وجنوب افريقيا .لكن كل هذا ظل وهما ولم نعرف غير ماقالت به ماما او الذين كانوا يجيئون احيانا في زيارة مشروع معمل انتاج الكهرباء هو ماكان بالتأكيد الاقدم ولم يبدأ تنفيذة الا في هذا الصيف في الوقت الذى كانت فيه ديون ابى عضالا .ماما هى التى حدثتنا عن ذلك ذات يوم بعد الفصل تحدثت عن ذلك كثيرا بتأثر وقد لمعتا عيناها عهد جديد كان يبدأ وسنعرف الامان اخيرا دون خوف من الغد ابونا كان قد نظم الحوض في العفرات هنا حيث يلتقى ذراعا النهر الاسود .

كان هذا هو المقع الذى إختارة لكى يقيم المعمل الذى سيعطى الكهرباء لانحاء المقاطعة الشرقية من " ميدين " حتى " بل اومير " أو " الظل الجميل " المولد الذى كان قد اشتراة من لندن بالمراسلة ابحر بالفعل الى " بور لوى " وكان قد جاء على عربة ابقار بامتداد الشاطىء حتى النهر السود عندئذ كان زمن الانارة بالزيت وبماكينة البخار قد إنتهى والكهرباء بفضل ابينا ستحدث في انحاء الجزيرة تقدمها شيئا فشيئا .ماما شرحت لنا ايضا ماذا كانت تعنى الكهرباء خواصها وإستخدامها لكنا كنا اصغر من أن نفهم أى شىء الاكشف اسرار قطع الورق الممغنطة بعقد ماما العنبر كماكنا نفعل كل يوم في ذلك الوقت .

ذات يوم ذهبنا جميعا ماما ابى لور وأنا في العربة ذات الجواد الى البركة في " يجريت " في وقت مبكر جدا بسبب الحرارة لن ماما تريد ان تعود قبل الظهر عند ثانى منحنى من الشارع المتجه للنهر الاسود وجدنا الطريق الذى يصعد بطول النهر أبى نظف الطريق

ليسمح بمرور العربة ذات الابقار التى تحمل المولد وعربتنا تجرى في ضباب كثيف من التراب .

إنها المرة الاولى التى تصعد فيها لور وأنا بطوزل النهر الاسود وننظر حولنا بفضول تراب الطريق ينتشر حولنا ويغطينا في سحابة بلون الحديد ماما لفت وجهها بشال متشبهة بأمرأة هندية ابى سعيد يتكلم وهو يقود الجواد اراه بحيث لا يمكننى ابدا أن انساه : ضخم جدا او رفيع وانيق يرتدى حلته الرمادية السوداء شعرة الاسود يتدلى الى الخلف أرى جانب وجهه وأنفه الدقيق الرومانى لحيته المشعة يداه الانيقتان تمسكان دائما سيجارة بين السبابة والابهام على طريقة القلم .ماما تنظر اليه هى الاخرى أرى ضوء نظراتة في ذلك الصباح على شارع التراب بامتداد النهر الاسود.

عندما نصل بالقرب من البركة في " ايجريت " أبى يربط الجواد في جذع شجرة ماء المفيضنقى في لون السماء .

الريح تكون الاخاديد التنتهز اليراع .لور وأنا نقول اننا سنحسب تماما أن نستحم لكن ابى يكون قد سار نحو السقالة التى ترفع المولد يطلعنا في كوخ من الخشب على الدينامو المقيد في النوربيين بحبال وسيور . في الظل التداخلات تلمع بشظية غريبة جعلتنا نخاف بعض الشىء أبونا أطلعنا ايضا على ماء البركة الذى يجرى عن طريق قناه تصب في النهر الاسود بوبينات كابلات ضخمة موضوعة على الارض امام المولد أبى يشرح مبينا أن الكابلات ستحلق بامتداد النهر حتى مصنع السكر ثم منه خلال التلال نحو " تاماران " ووهدان " بوكان " فيما بعد عندما يقوم التجهيز بتجاربه ستمتد الكهرباء ايضا بعيدا جدا في الشمال نحو " ميدين " و" فولمار " وربما حتى " فينيكس " ابى بتحدث الينا والى امى لكن وجهه متجه الى وجهه اخرى الى زمن آخر الى عالم آخر .

وهكذالا نكف عن التفكير في الكهرباءلور وأنا نعتقد انها ستجىء كل مساء كما لو كان ذلك بفعل معجزة وانها ستنير فجأة داخل منزلنا وتلمع في الخارج فوق النباتات والاشجار مثل نار " سان – إيلم " " متى ستأتى ؟ .ماما تبتسم عندما نلقى عليها السؤال أننا نريد أن نكتشف سرا ." قريبا ..." وتشرح بوجوب رفع التوربين وتثبيت القنطرة وغرس الاوتاد الخشبية وتعليق الكابلات بها كل هذا يتطلب شهورا وربما سنوات كلا من المستحيل وجوب الانتظار طويلا هكذا أبى قليل الصبر هو الاخر فالكهرباء هى ايضا نهاية همومة وبداية ثروة جديدة العم لودوفيك سيرى وسيفهم هوة الذى لم يشأ أن يعتقد في ذلك كما في كل مصانع السكر بالقرب ستحل التوربينات الكهربائية محل ماكينات البخار ابى يذهب كل يوم تقريبا الى " بورلوى " في شارع " رومبار " يرى شخصيات هامة ورجال بنوك ورجال اعمال . لم يعد العم لودوفيك يأتى الى " بوكان " يبدو أنه لايعتقد في الكهرباء على الاقل في هذه الكهرباء . لور سمعت ابانا يقول ذلك ذات مساء لكن اذا كان العم لودوفيك

لايعتقد فيها فكيف ستأتى حتى هنا لانه هو الذى يملك كل الاراضى المحيطة وهو الذى يملك كل ساحات الماء حتى وهدان " بوكان " له لو روانا نمضى هذا الصيف الاخير وطوال شهر يناير في القراءة على الارض في الردهات نتوقف كل مرة يتعلق فيها الامر بماكينة كهربائية ودينامو أو حتى بلمبة ذات خيط .

الليالى ثقيلة يوجد الان توقع في رطوبة الملاءات تحت النموسية شىء ما يجب ان يجىء في الظلام ارصد ضجيج البحر وانظر الى ظهور اكتمال القمر عبر مصراع النوافذ كيف تعرف ما يجب ان يجىء؟ ربما يكون ذلك في نظرة ماما كل مساء في ساعة الدرس . تجتهد في الا تترك شيئا يظهر لكن صوتها ليس هو نفسه وتغيرت كلماتها نشعر بالقلق ينتابها وعدم الصبر احيانا تتوقف اثناء الاملاء وتنظر من ناحية الاشجار الضخمة كما لو ان شيئا ما ينبغى ان يظهر .

ذات يوم في نهاية الظهيرة وأنا عائد من تيهان طويل مع دونيس في الغابات من ناحية النحور لمحت ابى وماما على الشرفة ولور الى جوارهما منكمشة بعض الشىء آلمنى قلبى لانى خمنت مباشرة بأن شيئا خطيرا قد حدث عندما كنت في الغابة .خفت ايضا من تبكيت ابى يقف بالقرب من السلالم عابس الوجه نحيف للغاية في حلتة السوداء التى تعوم فوقه وهو ممسك دائما بيسجارته بين ابهام وسبابة اليد اليمنى .

" أين ذهبت "

القى على بالسؤال بينما كنت اصعد الممرات وتوقفت لم ينتظر اجابتى قال فقط بصوت لم اعهدة فيه صوت غريب ومكتوم بعض الشىء :

" احداث خطيرة تخاطر ف عمل ..."

لايعرف كيف يستطرد .

ماما تتكلم بدورها انها شاحبة وتبدو شاردة هذا هو ما آلمنى بصفة خاصة اردت كثيرا الا اسمع ما عندها لتقوله لى .

" اليكى يجب علينا أن نترك هذا البيت علينا أن نرحل من هنا وللابد "

لور لاتقول شيئا تقف مستقيمة تماما على الفالوكة تنظر بثبات امامها بذات الوجه عدم الاحساس والمتصلب مثلما كان عندما شألها العم لودوفيك عن اسمها بصوته الساخر .

أنه الغروب بعد الليل اللطيف يبدأ على الحديقة امامنا فجأة فوق الاشجار يلمع النجم الاول بضوء ساحر لور وأنا ننظر اليه وماما تستدير هى الاخرى نحو السماء مثبته النجم كما لو كانت تراه للمرة الاولى فوق النهر الاسود .

لفترة طويلة ظللنا ساكنين تحت بصر النجم الظل يهبط تحت الاشجار ونسمع فرقعات الليل والخشخسات وموسيقى البعوض الزبرجدية .

ماما هى اول من قطع الصمت قالت بتنهيدة " كم هو جميل ! " ثم قالت ببشاشة وهى تهبط درجات الشرفة :"هيا سنبحث عن اسم النجوم"

هبط ابى هو الاخر سار ببطء بانحناءة قليلة ويدية خلف ظهرة اسير بالقرب منه ولور تتشبث بماما .

درنا معا حول البيت الكبير كسفينة غارقة في كوخ الكابتن كوك ضوء متذبذب نسمع ضجيج صوت مخنوق إنه آخر من بقى في المنطقة مع زوجته اين سيذهبان ؟ عندما جاء اول مرة الى " بوكان " في زمن جدى كان في العشرين من عمرة وكان قد عتق في ذات الوقت اسمع صوته الذى يرن في كوخة يتكلم وحده أو يغنى على البعد توجد اصوات اخرى ترن من ناحية حقول القصب إنهم المهلهلون الذين يلتقطون أو الذين يسيرون في اتجاه " تاماران " عن طريق " لاكوب " يوجد ايضا صر البعوض وغناء الضفادع في البركة في الطرف الاخر من الحديقة .

بالنسبة لنا السماء تضىء يجب نسيان كل شىء ولا نفكر مطلقا الا في النجوم ماما تطلعنا على الاضواء تنادى ابى ليلقى علينا بأسئلة اسمع يفي الظلام صوته الجلى الشاب وهذا يريحنى ويجعلنى واثقا .

" انظروا هنا ... اليست هى " بيتلجوز " عند قمة " اوريون " ؟ والملوك المجوس الثلاثة ! انظروا نحو الشمال سترون العربة ماسم النجم الصغير الذى يرى بالكامل عند حافة العربة فوق المجر ؟"

انظر بكل قواى لست متأكدا من رؤيته .

" يجم صغير جدا في اعلى العربة فوق النجم الثانى ؟ " أبى يلقى السؤال بحده كما لو أن ذلك له في بهذا المساء اهمية استثنائية .

" نعم هو هذا انه صغير جدا اراه وكان يختفى " يقول ابى انه الكور " ويسمى ايضا حوذى العربة الكبيرة العرب اطلقوا علية اسم الكور بما يعنى إختبار لأنه صغير للغاية بحيث تراه العيون الثاقبة جدا التى تستطيع أن تتبينه " ويصمت لحظة ثم يقول لماما بصوت اكثر بهجة " لك عينان ثاقبتان أن لا استطيع ابدا أن اراه " .

أنا ايضا رأيت الكور او بالاحرى أحلم بأنى لمحته دقيق مثل ذرة تراب من نار فوق مجر العربة الكبيرة ولمجرد رؤيته فأن هذا يمحى كل الذكريات السيئة وكل الهموم .

أبى هو الذى علمنا أن نحب الليل أحيانا في المساء عندما لايعمل في مكتبه يجذبنا من اليد لور على يمينة وأنا على اليسار ويقودنا بطول الممر الذى يخترق الحديقة حتى اسفل نحو الجنوب ويقول ممر النجوم لانه يتجه نحو منطقة السماء المأهولة اكثر وهو يسير يدخن سيجارة ونشم رائحة التبغ الطيبة في الليل ونرى الوميض الذى يتوهج حمرة بالقرب من شفتين ويضىء وجهه أحب رائحة التبغ في الليل .

الليال الاجمل في يوليو عندما تكون السماء باردة ومضيئة وبحيث نرى فوق جبال النهر الاسود كل اضواء السماء الاكثر جمالا : فيجا ، إيجل – تقول لور انها تشبه اكثر لمبة طيارة – والثالث الذى لا اتذكر ابدا اسمه يشبة حلية فريدة في قمة الصليب الكبير .إنها النجوم الثلاثة التى يسميها ابى جميلات الليل التى تلمع يفي مثلث يفي السماء الصافية يوجد ايضا " جوبيتير " و" ساتورن " يفي الجنوب تماما وهما نيران ثابتة فوق الجبال تنظر كثيرا الى " ساتورن " لور وأنا لأن خالتنا آديلاييدقالت لنا انه كان كوكبنا ذلك الذى يسود في السماء عندما ولدنا في ديسمبر . هو جميل يميل للزرقة يولمع فوق الاشجار صحيح أن به شيئا ما يخيف ضوء نقى وحادمثل ذلك الذى يلمع احيانا يفي عينى لور " مارس " ليس بعيدا عن " ساتورن " هو احمر ونشط وضوءة ايضا يجذبنا ابى لا يحب الاشياء التى تحكيها عن النجوم يقول لنا " هيا سننظر الى صليب الجنوب يسير امامنا حتى حافة الممر من ناحية شجرة " سلطا " لكى نرى جيدا صليب الجنوب يجب أن نكون بعيدا عن اضواء البيت ننظر الى السماء دون حتى ان نتنفس اعلم على النور " التوابع " العالية في السماء عند حافة " سونتور " في اليمين الصليب شاحب وخفيف يخفق بميل بعض الشىء كشراع اوراق لور وأنا نلمحة في ذات الوقت ولسنا في حاجة الى قول ذلك .ننظر معا الى الصليب دون أن نتكلم ماما تأتى لتلحق بنا ولا تقول شيئا لابينا نبقى هنا وكما لو كنا نستمع الى ضجيج النجوم في الليل كم هو جميل الا نكون يفي حاجة الى قول ذلك لكنى اشعر بقلبى يؤلمنى وعنقى الذى يلتك لانه في هذه الليلة تغير شىء ما شىء ما يقول ان كل شىء يجب أن ينتهى ربما يكون ذلك مكتوبا في النجوم هاهو ما افكر فيه ربما يكون ذلك مكتوبا في النجوم فكيف يجب أن نفعل لكى لايتغير شىء وأن ننقذ.

توجد علامات كثيرة في السماء اتذكر كل ليالى الصيف عندما كنا مختبئيين في عشب الحديقة وكنا نرصد النجوم الجارية على مهل ذات مساء رأينا مطرا من النجوم وقالت ماما على الفور : "هذه علامة حرب ولكنها صمتت لان أبانا لايحب أن نقول أشياء من هذا القبيل نظرنا طويلا الى السحب المتقدة التى كانت تعبر السماء في كل اتجاه بعضها طويلا للغايةحتى كنا نستطيع ان نتبعها بالنظر واخرى قصيرة كانت تتبدد بسرعة علمت اليوم ايضا ان لور مثلى تحاول ان ترى في ليالى الصيف خطوط النار هذه التى تسطر قدر الناس وتسمح للاشرار أن تتحقق ننظر الى السماء باهتمام لدرجة أن رؤوسنا تدور وتترنح من الدوار اسمع ماما التى تتحدث بصوت منخفض الى ابى لكنى لا افهم معنى كلامهم في

الشرق وحتى الشمال يوجد نهر " جالاكسى " الكبير الشاحب الذى يكون جزرا بالقرب من الصليب " شديد البياض " ويصب ناحية "أوريون " في اعلى قليلا ناحية بيتنا المح وميض " بلييادِ " المشوش الشبية ب " لوسيول " اعرف كل موقع في السماء وكل برج .

أبونا يدرس لنا السماء الليلية وكل مساء تقريبا يطلعنا على مكانها على خريطة كبيرة ملصقة على حائط مكتبه ويقول " من يعرف السماء جيدا لايمكنه ان يخشى من البحر هو الغامض دائما الصامت عندما يتعلق الامر بالنجوم يتكلم ينتعش وتلمع عيناه ويقول عندئذ اشياء جميلة عن الدنيا وعن البحر وعن الله يتحدث عن رحلات كبار البحارة هؤلاء الذين اكتشفوا طريق الهنود ومحيط الاقيانوس وامريكا في رائحة التبغ الذى يطير في مكتبه أرى الخرائط يتحدث عن " كوك " و" دارك " و" ماجلان " الذى اكتشف بحار الجنوب على " فيكتوريا " ثم مات في جزر " صوند " يتحدث عن " تاسمان " و " بيسكو " و " فيلكس " الذى ذهب حتى بولو في الصين " سوتو " في امريكا " اوريللانا " الذى صعد الى نهر الامازون " جميلان " الذى ذهب الى حافة سيبيريا " مونجو بارك " " ستانلى " ليفنجستون " بيجيفالسكى " اسمع هذه الحكايات واسماء البلاد "افريقيا " " التبت " " جزر الجنوب " انها اسماء ساحرة هى بالنسبة لى مثل اسماء النجوم مثل رسومات الابراج في المساء وأنا نائم على سر يرى في المعسكر اسمع ضجيج البحر الذى يأتى والريح في اير الشباك .وعندئذ افكر في كل هذه الاسماء ويخيل الى ان السماء الليلية تفتح وأنا فوق مركب ذات اشرعة شامخة على البحر اللامتناهى تبحر حتى " مولوك " وحتى خليج " آسترولاب" وحتى " فيجى " و" موريبا " على كوبرى هذا المركب قبل أن اخلد الى النوم ارى السماء كما لم أرها ابدا من قبل كبيرة للغاية زرقاء داكنة فوق البحر الفوصسفورى المتوهج اعبر ببطء الى الناحية الاخرى من الافق وأجدف في اتجاه " ملوك المجوس و نحو " صليب الجنوب ".

اتذكر رحلتى الاولى في البحر كان ذلك في يناير كما اعتقد لان الحرارة كانت عنئذ شديدة للغاية قبل الفجر ولم يكن هناك نفسا واحدا على وهد " بوكان " عند بزوغ الفجر ودون أن احدث ضجيجا انزلقت خارج الحجرة لم يكن هناك ضجيجا بعد في الخارج والجميع ينامون يفي المنزل فقط وميض يلمع في كوخ الكابتن كوك لكنه في هذه الساعة لا ينشغل بأحد ينظر البالسماء الرمادية في انتظار طلوع النهار ربما يكون الارز في سبيله الى الغليان في القدر الكبير الاسود فوق النار ولكى لا احدث ضجيجا اسير حافى القدمين على ارض الممر الجافة حتى حافة الحديقة دونيس ينتظرنى تحت شجرة " شالطا الكبيرة وعندما وصلت اليه وقف دون ان يقول كلمة واحدة ويبدأ السير نحو البحر يذهب سريعا عبر النباتات دون ان يهتم بى انا الذى يلهثيمام يجرى بين القصب خائف لكن دون ان يجرؤ على الطيران عندما ظهر ضوء النهار سلكنا طريق النهر الاسود الارض اصبحت ساخنة تحت قدمى والهواء يشم التراب بدأت العربات ذات الابقار تجرى على طرق النباتات

وارى على البعد الدخان الابيض لمداخن معامل السكر انتظر ضجيج الريح يتوقف دونيس فجأة نظل ثابتين وسط القصب اسمع عندئذ ضوضاء الامواج فوق الصخر يقول دونيس " عظيم البحر " ريح المفيض تجىء نحونا .

نصل الى النهر الاسود وقت ارتفاع الشمس خلف الجبال لم اكن ابدا بعيدا الى هذا الحد عن " بوكان " وقلبى يدق بقوة بينما اجرى خلف ظل دونيس الاسود نعبر النهر بمعبر بالقرب من المصب يغطينا الماء البارد حتى القامة ثم نسير بطول تلال الرمل الاسود على الشاطىء يوجد زوارق الصيادين مصطفة فوق الرمل بعضها تستقر مقدمته في الماء الرجال يدفعون الزوارق يفي الفضاء يمسكون حبل الشراع لذى نفخة ريح الغيضة وجعله يخبط زورق دونيس عند حافة الشاطىء رجلان يدفعانه نحو البحر رجل عجوز ذو وجه متشنج في لون الجلد ورجل ضخم اسود ومصارع معهما امرأة شابة غاية يفي الجمال تقف على الشاطىء الشعر مضغوط يفي منديل احمر " أنها أختى " هكذا يقول دونيس صراحة ويقول هو خطيبها الزورق خاص به المرأة الشابة ترى دونيس تنادية معا تدفع الزورق الى الماء عندما يلامس الفضاء خلفية الزورق يصيح دونيس في " إصعد ! " ويقفز هو نفسه الى الحافة يجرى نحو المقدمة يقبض على العصا الطويلة لكى يقود الزورق نحو الاتساع الريح ينفخ عن قرب شديد الشراع الكبير كما لو كان علما والزورق يقفز وسط الامواج عندئذ نكون بعيدين عن مالشاطىء ارتجف وانا مبلل بالموج الذى يصطدم ولكنى انظر الى الارض السوداء التى تبتعد منذ وقت طويل وأنا انتظر هذا اليوم حدثنى دونيس ذات يوم عن البحر عن هذا الزورق وسألته : " متى ستصحبنى معك على الزورق ؟ نظر الى دون ان يقول شيئا كما لو كان يفكر انا لم اتحدث لاحد بهذا الشأن ولا حتى للور لانى خفت من تقول لابى لور لاتحب البحر ربما لانها تخاف من ان .

ولهذا عندما خرجت هذا الصباح حافى القدمين لكى لا احدث ضجيجا استدارت في سريرها ناحية الحائط حتى لاترانى .

ماذا سيحدث عندما اعود ؟ لكن الان لست على استعداد للتفكير في ذلك كما لو كنت لن اعود ابدا .الزورق يغطس في جوف الامواج مفجرا حزما من الزبد في الضوء الرجل العجوز والخطيبة ربطا الشراع المثلث الزوايا في الصار والريح العتية التى تهب من المضيق ترجح الزورق دونيس وأنا نجلس القرفصاء في مقدمة الزورق في مواجهة الشراع الذى يهتز وقد غطانا البلل عينا دونيس تلمعان عندما ينظر الى ودون ان يتكلم يطلعنى على البحر الازرق المرتفع والمعتم أو ايضا خط الشاطىء الاسود خلفنا بعيدا جدا وظلال الجبال في مواجهه السماء الصافية .

الزورق يسير على البحر المرتفع اسمع ضجيج الامواج العميق والريح يملأ أذنى لم اعد اشعر بالبرد ولا بالخوف الشمس تحرق توقف جسارة الموج لا ارى شيئا اخر ولا افكر

في شيء اخر غير البحر العميق الازرق والافق الذى يتحرك وطعم البحر والريح أنها المرة الاولى التى اكون فيها فوق مركب ولم اعرف ابدا شيئا في مثل هذا الجمال الزورق يعبر النفق ويجرى بطول الصخور في رعد الامواج ومتفجرات حزم الزبد .

دونيس يميل على صدر الزورق ينظر الى الماء المعتم كما لو كان يرصد شيئا ما ثم يفرد يده ويشير الى صخرة كبيرة محترقه مستقيمة الى الامام ويقول : العابسة " .

لم اره ابدا في مثل هذا القرب " العابسة " منتصبة فوق البحر شبيهه بحصاه بركانية بدون شجرة واحدة وبدن نبات .

تمتد حولها شواطىء الرمل النقى وماء البحيرات المالحة كما لو كنا سنذهب الى اخر العالم عصافير البحر تطير حولنا وهى تصيح وزمج الماء وطيور بحرية بيضاء وبارجات ضخمة قلبى يدق بقوه واضطرب من القلق لشعورى بأنى ذهبت بعيدا جدا في الناحية الاخرى من البحر الموج البطىء يضرب الزورق من العرض والماء يكتسح العمق .دونيس يندس بحت الشراع وهو يجمع قرعتى إناء من عمق الزورق ويناديني ننزح الماء معا في الخلف الرجل الاسود الضخم يلف ذراعة حول اخت دونيس ممسكا بحبل الشراع بينما يستند العجوز ذو الوجه الهندى على القضيب يسيل منهم ماء البحر لكنهم يضحكون وهم يروننا ونحن ننزح الماء الذى يجىء دون توقف وأنا اجلس القرفصاء في عمق الزورق اقذف الماء من فوق الحافة تحت الريح وارى في ذات الوقت تحت الشراع سمك العابسة الاسود وبقع الرغاوى على الصخر .

ثم نغير مقدم الزورق والريح يكنس الشراع الكبير فوق رؤوسنا ويطلعنى دونيس على الضلع :

" هنا المضيق وجزيرة الماء المقدس "

نكف عن نزح الماء ونركض نحو مقدم الزورق لنرى بشكل افضل خط الصخر الابيض يفتح امامنا الزورق المدفوع بالامواج يندفع مباشرة نحو العابسة هدير الامواج على قضيب المرجان قريب جدا الامواج تندفع بانحراف وتصطدم دونيس وأنا نرقب الماء العميق يزرقة تؤدى الى الدوار رويدارويدا يفتح اللون امام جذع الزورق نرى انعكاسات خضراء وسحب ذهبية العمق يظهر تجرى بكل قوة صفائح المرجان وكرات بنفسجية كبيرة من القنافذ واكوام من الاسماك الفضية الماء هادىء الان والريح قد كف الشراع المنتفخ يحارب حول الصار كما العلم نحن في بحيرة " العابسة " هنا حيث يجىء الرجال ليصطادوا .

الشمس عالية الزورق يتهادى فوق المياه الساكنة في صمت مدفوعا بعصا دونيس في الخلف خطيب اخت دونيس يسند دون ان يتركها بمجداف صغير بأحدى يدية الرجل العجوز يرقب الماء وهى في مواجهه الشمس يبحث عن الاسماك فيحفر المرجان في يده خط طويل يجعل الرزاز يصفر في الهواء بعد عنف البحر المرتفع المعتم بعد هبات الريح الشديدة والضباب اجد نفسى هنا كما لو انى في حلم فاتر ملىء بالضوء اشعر بحرقة الشمس على وجهى وعلى ظهرى خلع دونيس ملابسة لكى ينشفها وقلدته عندما تعرى غطس فجأة في الماء الشفاف دون ضجة تقريبا اراه يسبح تحت الماء ثم اختفى عندما اعاد مساحة تناول سمكة كبيرة حمراء كان قد خطفها بخطاف والقى بها في عمق الزورق عطس من جديد في الحال انزلق جسمة الاسود بين مياهين وظهر من جديد وغطس ايضا في النهاية جلب سمكة اخرى ذات قشور زرقاء ثم القى بها ايضا في الزورق .

الزورق قريب جدا من قضيب المرجان الان الكبير الاسود والرجل العجوز ذو مالوجه الهندى يلقيان بخطوطهما يعودان مرات عدة بأسماك وعجائز وسيدات واسكافيات مكثنا طويلا في الصيد بينما حاد الزورق عن طريقة بامتداد الصخور الشمس تحرق في كبد السماء المظلمة لكن من البحر يفيض الضوء ضوء اعمى يسكر وانا ساكن اميل فوق صدر الزورقانظر الى الماء الذى يلمع يلمس دونيس كتفى ويخرجنى من خدرى نظرته تبرق مثل احجار سوداء وصوته يغنى بشكل مضحك كمواليد المستعمرات :

" ليزييه مانى مانى "

إنه دوار يجيء من البحر مثل سحر الشمس والانعكاسات التى تجعلنى مضطربا وهى تسحب قوامى وبرغم الحرارة الشديدة اشعر بالبرد اخت دونيس وخطيبها تمهلا في عمق الزورق تحت ظل الشراع الذى يتموج في النسيم دونيس يأخذ من ماء البحر في يديه ويبلل وجهى وجسمى ثم مدفوعا فوق العصا يقود الزورق نحو الساحل بعد قليل ترسو فوق الشاطىء الابيض بالقرب من راسى " مورن " هنا توجد بعض الشجيرات وبعض المخمل اسير بمساعدة دونيس حتى ظل مخمل اخت دونيس تعطينى اشرب من قارورة شرابا حمضيا يحرق لسانى وحلقى واصحو اريد عندئذ أن اقف ان اسير نحو الزورق لكن اخت دونيس تقول يجب ان ابقى في الظل ايضا حتى تهبط الشمس نحو الافق الرجل العجوز ظل في الزورق معتمدا على العصا انهم يبتعدون الان فوق الماء التى تلمع لكى يستمروا في الصيد .

دونيس ظل جالسا بالقرب منى لايتكلم هو معى في ظل المخمل فخذاه ملطختين بالرمل الابيض هو ليس مثل الاطفال الاخرين الذين يعيشون في المناطق الجميلة هو ليس في حاجة الى الكلام هو صديقى وصمتى هنا بالقرب منى هو طريقة للقول .

كل شيء جميل وهادىء في هذا الموقع انظر الى ساحة البحيرة الخضراء ومخمل الزبد بطول سد المرجان ورمل الشواطىء الابيض والتلال الرملية والرمل المختلط بالشجيرات الشائكة وغابات الاشجار الساقبة المظلمة وظل المخامل وامامنا صخرة " مورن " المحترقة الشبيهه بقبعة مليئة بعصافير البحر .

ونحن كما لو كنا غرقى هنا منذ شهور بعيدا عن كل العمار في انتظار مجيء مركب في الافق لكى تعيدنا افكر في لور التى وجب عليها أن ترقب عند شجرة " شالطا " وافكر في ماما وابى وارغب في اللاتنتهى هذه اللحظة .

لكن الشمس تهبط نحو البحر تحوله الى معدن والى زجاج كثيف الصيادون يعودون دونيس هو الذى شاهدهم اولا يسير على الرمل الابيض وظله المخلع في مشيته يشبه ظل ظله يسبح امام الزورق في المياه المليئة بالشرر ادخل في البحر خلفة الماء المنعش يغسل تعبى واسبح في اثردونيس حتى الزورق الخطيب يمد لنا يده ورفعنا بدون مجهود عمق الزورق ممتلىء بالاسماك من كل نوع ويوجد قرش صغير ازرق قتله الخطيب بضربة خطاف عندما اقترب لكى يأكل غنيمة مطعونا في منتصف الجسد تجمد القرش مفتوح الفم الذى يظهر اسنانة مثلثة الزوايا يقول دوني سان الصينيين يأكلون القرش ويصنعون ايضا عقدامن اسنانه .

رغم حرارة الشمس ارتعد. خلعت ملابسى ووضعتها بالقرب من مقدمة الزورق لكى تجف الان يتهادى الزورق نحو المضيق ونشعر بالدوامات الطويلة التى تجىء دائما من اعالى البحر والتى تتكسر على سد المرجان فجأة يصبح البحر بنفسجيا قاسيا الريح ينطلق عندما نتجاوز السد بطول الجزيرة في " بنيتييه " الشراع الكبير مط الى جوارى ودوى والزبد تفجر في مقدمة الزورق طوينا ملابسنا بسرعة دوني سوانا واخفيناها بالقرب من الصار . عصافير البحر تتبع الزورق بسبب الاسماك التى شعرت بها إنها تبحث احيانا عن الفوز بسمكة ويصيح دونيس مادا ذراعية لكى يخيفها انها طيور بحرية لها نظرة ثاقبة تحلق في الريح بالقرب من الزورق وهى تصيت على البيض خلفنا تبتعد صخرة " مورن " المحترقة الضخمة في ضوء الفسق المحجوب الشبيهه بقصر مستفيد بالظل بالقرب من الافق تماما تختلط الشمس بسحب طويلة رمادية .

لن انسى ابدا هذا اليوم الطويل للغاية هذا اليوم الشبيه بشهور وسنين ففيه عرفتالبحر لاول مرة اردت الا يكف وان يستمر اكثر اردت الا يكف الزورق عن الجرى فوق الامواج في الزبد المتفجر حتى الهند وحتى المحيط يذهب من جزيرة الى جزيرة مضاء بشمس لاتغيب .

كان الوقت ليلا عندما رسونا عند النهر الاسود سرت بسرعة مع دونيس حتى " بوكان " عارى القدمين في التراب ملابسى مليئة بالملح وشعرى ايضا وجهى وظهرى يحترقان بضوء السمي عندما اصل امام البيت يذهب دونيس دون ان يقول شيئا اسير على الممر والقلب يدق وارى ابى منتصبا في الشرفة وهوييدو في ضوء لمبه الصعق اكبر وارفع فيحلته السوداء وجهه شاحب مكدودا بالهم والغضب عندما اصبحت امامة لم يقل شيئا لكن نظرته جامدة وباردة حلقى مقبوض ليس بسبب العقاب الذى ينتظرنى لكن لعلمى انى لن استطيع ان اعود ابدا الى البحر وان هذه الامر قد انتهى في تلك الليلة وبرغم التعب والجوع والعطش ظللت ساكنا في الفراش الذى يلهب ظهرى غير عابىء بالذباب اسمع كل حركة للهواء وكل نفس وكل فراغ يقربنى من البحر .نعيش لور وأنا آخر ايام هذا الشتاء عام الاعصار اكثر إنطواء على انفسنا في قاع " بوكان " حيث لااحد يجيء لرؤيتنا ولهذا السبب ربما إستشعرنا هذا الانطباع الغريب بانذار بخطر يقترب منا أو ان الوحدة ايضا جعلتنا اكثر حساسية لعلامات ماقبل الركض بنهاية " بوكان " وربما ايضا بسبب الحرارة غير المحتملة تقريبا التى تحط على الشواطىء في وادى " تاماران " ليل نهار حتى نسيم البحر لايمكنه ان يخفف وطأة الحرارة على الزراعات وعلى الارض الحمراء بالقرب من حقول الصبر في "والهالله " و" تاماران " الارض تحترق كما الفرن والجداول تجف في المساء اشاهد دخان معمل تقطير "كاه هين " ممزوجا بسحب الغبار الاحمر لور تحدثنى عن خطر النار الذى يرسله الله فوق مدن " سودوم " الملعونة ومدن " جومور " وفوران بركان " فيسوف عا م ٧٩ عندما التهمت مدينة " بومبى " تحت وابل الرماد الساخن لكن هنا ترصدنا بلا طائلوظلت السماء فوق جبل " روميار " و" الاثداء الثلاثة " صافية تحجبها بالكاد بعض السحب غير المؤذية لكنا شعرنا في اعماقنا بالخطر للحظات .

ومنذ سابيع وامى مريضة وقد اوقفت دروسها ابونا بدورة قاتم ومتعب ايظل مغلقا على نفسه في مكتبة للقراءة او مالكتابة او للتدخين وهو ينظر من النافذة يذهول اعتقد انه في هذا الوقت تحدث معى صراحة عن كنز مجهول للقرصان وعن مستندات احتفظ بها في اعلى منذ زمن طويل سمعت عن هذا لاول مرة ربما من امى غير المقتنعة لكن هذا هو الوقت الذى حدثنى فيه عن ذلك مطولا باعتبارة سرا هاما ماذا قال ؟ لايمكننى ان اتذكر على وجه اليقين لانه اختلط في ذاكرتى بكل ماسمعت وقرأت في وقت لاحق لكنى اتذكر الغرابة التى بدت عليه عندما ادخلنى الى مكتبه .

إنها غرفة لاندخلها قط الا في الخفاء ليس لان هذا محظور صراحة لكن هناك في هذا المكتب نوعا من سر كان يخيفنا بل ويرعبنا قليلا في ذلك الوقت مكتب والدى كان عبارة عن غرفة طويلة ضيقة في اخر المنزل تماما بين غرفة المعيشة وغرفة نوم ابوينا غرفة هادئة ومفتوحة الى الشمال مع الاضية والجدران الخشبية المطلية ومؤثثة فقط بطاولة كبيرة للكتابة بدون ادراج وكرسى وبعض جذوع معدنية تحتوى على الاوراق الطاولة

كانت في مواجهة النافذة بحيث عندما تكون المصاريع مفتوحة يمكن ان نرى لور وأنا وراء الشجيرات في الحديقة تختبىء صورة ظلية لوالدنا وهو يقرأ او يكتب ملفوفة في سحب دخان السجائر من مكتبة كان يمكن ان يرى الضروع الثلاثة وجبال وديان النهر الاسود الضيقة وهو يرصد تحرك السحب .

اتذكر إذن دخولى في مكتبه وأنا استرد انفاسى بالكاد وانظر الى الكتب والصحف المكدسة على الارض والخرائط المعلقة على الجدران الخريطة التى افضلها هى الخاصة بالابراج التى اظهرت لى علم الفللك .عندما ندخل الى المكتب نقرأ بشغف اسماء النجوم وعلامات منم المساء والقدس مسترشدا بالنجم الذئبة اكويلا اوريون وهو السماك الرامح العقرب بالرسم الجذر واضعا ذيل مثل رشق للضوء في رأسة الحمراء الدب الاكبر كل نجمة في المنحنى حيث يثبت بغرابة في ذاكرتى النجم الاكبر وهو أتذكر الكلب الكبير الذى يحمل في فمه شيئا مثل الخطاف وسيريوس الجميلة والى اسفل مثلث يدق . مازلت ارى التصميم المتقن الذى احبة اكثر من غيرة وكنت ابحث عن ليلة بعد ليلة في سماء الصيف جنوبا في إتجاه المنحدر : سفينة التى ارسمها احيانا في تراب الطرق هكذا

والدى يقف يتحدث وأنا لا افهم جيدا ما يقول .إنه لا يتحدث الى إنما الى هذا الطفل ذو الشعر الطويل جدا ذو الوجهالملفوح بالشمس وملابس ممزقة من السباق في الادغال وحقول قصب السكر يتحدث الى نفسة عيناه تلمعان وصوته مختنق الى حد ما بالانفعال يتحدث عن الكنز الهائل الذى سوف يكتشفة لانه يعرف المكان الذى يختبىء فيه اكتشف الجزيرة التى وضع فيها القرصان المجهول مستودعة . لايذكر اسم القرصان لكن فقط كما سأقر' فيما بعد في وثائقة وثائق القرصان المجهول وهذا الاسم يبدو لى اليوم اكثر واقعية ومحمل اكثر بغموض اكثر من اى اسم اخر .

يحدثنى للمرة الاولى عن جزيرة " رودريج " واحدة من توابع مويشيوس على مسافة عدة ايام بالمركب .على حائط مكتبة علق كشفا للجزيرة اعاد طباعته بالحبر الصينى وملونا بالالوان المائية مغطى بعلامات ومعالم في اسفل اللوحة اذكر انى قرأت هذه الكلمات رودريج جزيرة وأدناها واسمع والدى دون ان استمع اليه كما في اعماق حلم اسطورة الكنز والابحاث التى تمت منذ مائة عام في جزيرة " العنبر " في في " سيشيل " ربما تكون المشاعر او القلق هى التى تدفعنى للفهم لانى اعتقد ا نماهم شىء في العالم هو سر يمكنه في كل لحظة أن ينقذنا أو يضيعنا لم يعد الامر خاصا بالكهرباء الان ولا اى مشروعات أخرى أضاءة كنز رودريج تبهرنى وتجعل كل ماعداها شاحبا ابى يتحدث كثيرا هذا المساء وهو يسير طولا وعرضا في الغرفة الضيقة يرفع اوراقا لكى ينظر اليها ثم يضعها دون حتى أن يطلعنى عليها بينما اظل واقفا بالقرب من طاولته دون ان اتحرك ناظرا خلسة خريطة جزيرة رودريج المعلقة على الحائط بالقرب من لوحة السماء .وهذا قد

يكون السبب في نظرتى فيما بعد للاحساس بكل ماحدث بالتبعية هذه المغامرة وهذا المسعى في مناطق من السماء وليس على ارض الواقع وأنى كنت قد بدأت رحلتى على متن السفينة " أرجو " .

إنها آخر اسام الصيف وتبدو لى طويلة جدا ومحملة بأحداث كثيرة في كل وقت من النهار والليل أنها اكثر من شهور أو سنوات تغير بعمق العالم من حولنا وتتركنا عجزة أيام حارة عندما يبدو الجو كثيفا وثقيلا وسائلا على وادى " تاماران " وتشعر اننا محاصرين في دائلرة من الجبال ماوراء ذلك السماء صافية متغيرة السحب تنسل في مهب الريح ظلالها تغطى التلال المحترقة الحصاد الاخير سيكتمل قريبا والغضب يهدر بين العاملين في الحقول لأنهم لا يجدون مايأكلون احيانا في المساء ارى دخان الحرائق الاحمر في حقول القصب فتكتسى السماء بلون غريب عاصف احمر يؤذى العينين والحنجرة . على الرغم من الحطر اذهب كل يوم تقريبا في انحاء المزارع لرؤية الحرائق أذهب حتى " يمن " واحيانا حتى " تاماران " أو حتى " ماجنتا " والنهر الجميل من اعلى البرج أرى أدخنة اخرى تتصاعد على الساحل الشمالى من ناحية " كلارونس " و " مارسوناى " على حدود " ولمار " أنا مصرى الان من رحلة الزورق ناهانى والدى عن رؤية دونيس لم يعد يأتى الى " بولكان " تقول لور أنها سمعت جده والكابتن كوك وهما يصيحان به بعد ذلك لانه جاء لمقابلتة رغم المنع .ومنذ ذلك الوقت إختفى هذا جعلنى اشعر بالفراغ وبوحدة كبيرة هنا كما لو كنا والدى ولور وأنا ىخر سكان " بوكان " .

لذلك أنا ذاهب بعيدا أبعد من أى وقت مضى اصعد الى قمة جدران مولد الكهرباء وأراقب الدخان المتصاعد من حجبها اعدو عبر الحقول التى دمرها التقطيع لايزال يوجد عمال في بعض الاماكن نساء فقيرات جدا من كبار السن ترتدى الخيش تلتقط أو تقطع العشب المستهجن بمناجلها عندما ترانى بوجوه مسيجة وملابس ببقع الارض الحمراء واقدام حافية تضع أحذيتى المربوطة فوق الرقبة تطاردنى وهى تضحك لانها خائفة لايغامر اى شخص ابيض بالمجىء الى هنا ابدا أحيانا يسبنى السير داروبلقوننى بالحجارة وأعدو عبر قصب السكر حتى افقد انفاسى اكرة السيردار واحتقرهم اكثر من اى شىء في الدنيا لانهم قساه واشرار يضربون الفقراء بالعصى عندما لايصل محصول القصب بسرعة اكبر الى العربات .

لكن في المساء يحصلون على اجر مضاعف ويسكرون بالعرقى أنهم جبناء ومتملقون مع المديرين يتحدثون اليهم وهم يخلعون قبعاتهم ويتظاهرون بحب من اساءوا معاملتهم من قبل في الحقول يوجد رجال عراة تقريبا الجسد وحده مغطى بأسمال ينزعون بقايا الجزوع وسلالات القصب القديمة بملاقيت الحديد الثقيلة والتى تسمى " جلة " يحملون كتل البازلت على الاكتاف حتى عربة البقر ثم يكدسونها في ىخر الحقل يشيدون اهرامات جديدة انهم

الذين دعتهم أمى " شهداء " قصب السكر يغنون وهم يعملون واحب تماما الاستماع الى اصواتهم الرتيبة في مساحات المزارع الخالية أعلى هرم اسود احب تماما أن اغنى لنفسى الاغنية القديمة بلغة الموالد التى كان يغنى بها الكابتن كوك للور ولى عندما كنا صغيرين ويقول :

" مو " عبر نهر " تاينيه "

التقى بالام الكبيرة

" مو " يقول " لى " الذى يفعل هنا

" لى " يقول : مو مو على كابوت

مو

يجب أن يعمل ليكسب خبزه

مو

يجب ان يعمل ليكسب خبزة

هنا فوق كومة الحجارة ارى دخان النار من ناحية " يمن " و" لهلا " آنه قريب جدا هذا الصباح قريبا جدا من مخيم نهر " تاماران " وافهم ان شىء خطيرا في سبيله للحدوث القلب يدق أركض عبر الحقول حتى الطريق الترابى سقف منزلنا الازرق الناصع بعيدا جدا أختى يمكننى ان اخبر لور بما يحدث اسمع ضوضاء مكافحة الشغب عند وصولى الى باب " بوكان " أنها إشاعة مثل الزوبعة التى تهب من كل إتجاه دفعة واحدة والى لها صدى في اودية الجبال توجد صيحات وهدير واعيرة نارية ايضا رغعم الخوف اعدو وسط حقل قصب السصكر دون الحذر من التقاطيع اصل فجأة امام مصنع السكر وسط خضم الضجيج وارى مكافحة الشغب حشد مرتدى الخيش تجمع امام الباب وكل الاصوات تصرخ معا امام الحشد ثلاثة رجال على ظهور الخيل .

واسمع صوت الحوافر على الارصفة عندما يرفعون ارجل دوابهم وعلى البعد ارى الفم المتثائب من تفل الفرن حيث دوامة الشرر .

حشد الرجال يتقدم ويتراجع على شكل رقصة غريبة بينما تشتعل الصرخات وهجا مروعا الرجال يشهرون سيوفا مزيفة والنساء ترفع مجارف وسواطير . مأخوذا بالخوف بقيت بلاحراك بينما الحشد يدفعنى ويحيط بى . أختنق أعماقى الغبار بصعوبة كبيرة شققت طريقا حتى جدار مصنع السكر . في هذه اللحظة دون أن افهم مايحدث ارى الفرسان

الثلاثة يندفعون حو الحشد الذى يحيط بهم صدور الخيل تدفع الرجال والنساء والفرسان يضربون بأعقاب البنادق جوادان يهربان في اتجاه المزارع تتبعهما صرخات غضب الحشد مروا بالقرب منى لدرجة أنى القيت على الارض في التراب خوفا من تعرضى للدهس ثم لمحت الفارس الثالث سقط من فوق جوادة امسكه الرجال والنساء من ذراعية وصرعوة .عرفت وجهه رغم الخوف الذى يشوهه انه احد اقارب فرديناند زوج ابنه عمه مدير مزارع العم لودوفيك ويدعى دومون قال لى والدى انه كان اسوأ من سردار يضرب العمال بكعوب العصى ويسرق اجور الذين يشكون منه لالان رجال المزارع هم الذين يقسون عليه ويكيلون له الضربات ويسبونه ويطرحونة ارضا في لحظة وسط الحشد الذى يصرعةاصبح قريبا منى بحيث أرى نظراتة الضائعة اسمع حشرجة أنفاسة أصابنى الخوف لانى فهمت أنه سيموت .

الغثيان يرتفع في رقبتى يخنقنى عيناى مليئتين بالدموع أقاتل بقبضتى الحشد الغتضب الذى لايرانى حتى .الرجال والنساء الذين يرتدون الخيش يواصلون رقصتهم الغريبة وصرخاتهم عندما تمكنت من الخروج بعيدا عن الحشد عدت ورأيت الرجل الابيض ثيابه تمزقت يحملة من ذراعية وساقية رجال سود نصف عراة حتى مصب تفل الفرن . الرجل لايصرخ ولا يتحرك وجهه عبارة عن بقعة بيضاء من الخوف بينما يرفعة السود من ذراعية وفخذية ويبدأون في مرجحته امام باب الفرن الاحمر . أظل مأخوذا وسط الطريق وأنا اسمع اصوات تصرخ بصوت اقوى واقوى وهو الان مثل أغنية بطيئة ومؤلمة تحدد ايقاع تمايل الجسم فوق السنة اللهب .وهناك حركة واحدة للجمهور وصرخة كبيرة متوحشة عندما إختفى الرجل في الفرن .وفجأة كف الصخب واسمع من جديد هدير النيران المكتوم والغرغرة في الاوعية الكبيرة اللامعة لااستطيع عض بضرى عن وجه الفرن المشتعل بالنيران حيث يجرف السود الان تفل القصب الجاف وكأن شيئا لم يكن ثم ببطء ينقسم الحشد النساء مرتدو الخيش فرن في التراب الوجه مغطى بالطرحة.

الرجال يتوغلون في طرق القصب سيوفهم في أيديهم .لم يعد هناك صراخ ولا ضوضاء فقط صمت الريح على اوراق القصب بينما اسير نحو النهر .أنه صمت بداخلى يملؤنى ويصيبنى بالدوار وأعرف أننى لا استطيع أن اتحدث الى أحد ممن رأيتهم هذا اليوم .

أحيانا لور تجيء معى في الحقول نسير فوق المسارات وسط القصب المقطوع وعندما اكون الارض رخوه جدا أو توجد اكوام القصب المقطوع أحملها على ظهرى لحتى لايتسخ ثوبها وأحذيتها هى اكبر منى بعام واحد وهى خفيفة وهشة بحيث أتصور انى احملها طفله صغيرة . تحب كثيرا أن نمشى هكذا بينما اوراقالقصب المقطوعة تكون امام وجهها وخلفها ذات يوم جعلتنى ارى بين الاكوام عددا قديما من اخبار لندن مع الرسم الذى يمثل " ناعومى " محمولة على اكتاف على وسط حقول الشعير ." ناعومى " تضحك بصخب

وهى تقتلع السنابل التى تضرب وجهها .تقول لى انه بسبب هذا الرسم اسمتنى " على " لو تحدثنى أيضا عن " بول وفرجينى " لكنها قصة لا احبها لأن فرجينى كانت خائفة من خلع ملابسها للنزول في البحر أجد هذا هزلا وأقول للور أن هذه بالتأكيد ليست قصة حقيقية لكن هذا يغضبها تقول أنى لا افهم في ذلك شيئا .

نذهب في اتجاه التلال حيث تبدأ مقاطعة " ماجنتا " و " مصايد " الاثرياء لكن لور لاتريد أن تدخل الى الغابة لذلك نهبط معا من جديد نحو نبع " بوكان " في التلال الهواء يكون رطبا مثل ضباب الصباح الذى يظل عالقا طويلا بوريقات الشجيرات بور وأنا نحب تماما الجلوس في أحد الاماكن الخاليى عند خروج الاشجار بالكاد من ظل الليل ونحن نرقب ممر الطيور البحرية أحيانا نرى زوجا من الطيور البحرية ذات الذنب .

العصافير الجميلة البيضاء تخرج من عنق النهر الاسود من ناحية " مانانافا " وتحلق طويلا فوقنا أجنحتها مفتوحة تشبه صلبان الزبد وأذيالها الطويلة تجرجر خلفها لو تقول أنهم ارواح البحارة الموتى في البحر ونساء تنتظر عودتهم بلا جدوى أنهم صامتون لاثقل لهم يعيشون في " مانانا فا " هنا حيث الجبل مظلم وحيث السماء مغطاه نعتقد أن المطر يولد من هنا .

" يوما ما سأذهب الى " مانانافا "

لور تقول :

" كوك يقول يوجد دوما كستناء في " مانانافا " أذا ذهبت الى هناك سيقتلونك "

" هذا ليس صحيحا لايوجد احد هناك دونيس ذهب قريبا جدا قال لى انه عند الوصول الى هذا المكان كل شيء يستحيل ألى سواد فيقال أن الليل هبط ولذلك لابد من العودة الى الوراء

لور تهز كتفيها لاتحب ان تستمع الى هذه الاشياء تقف تتطلع الى السماء حيث أختفت العصافير تقول بنفاذ صبر :

" هيا ! "

عبر حقول نعود نحو " بوكان " وسط الوريقات سطح منزلنا يلمع مثل بركة صغيرة .

منذ كانت مريضة بالحمى لم تعد أمنا تعطينا دروسا فقط بعض القراءات والتعليم الدينى هى ضعيفة وشاحبة تماما لاتغادر حجرتها مطلقا الا لكى تجلس على المقعد الوثير في الشرفة جاء الطبيب من " فلوريال " في عربته التى يجرها جواد يدعى " كوينج " قال لوالدى وهو ينصرفالحرارة هبطت لكن لعلها لاتسبب ازمة أخرى لان ذلك سيكون مرضا معديا قال ذلك ولايمكننى ان انسى هذه الكلمة إنها في رأسى كل لحظة نهارا وليلا .وبسبب

ذلك لا استطيع أن ابقى في المكان على ان اتحرك طول الوقت من كل صوب وصوب كما يقول ابى في حقول قصب السكر التى تحرقها الشمس منذ الصباح وانا استمع مرتدو الخيش وهم يغنون أغانيهم الرتيبة أو نحو شاطىء البحر على امل لقاء دونيس العائد من الصيد .

أنه الخطر الذى يتهددنا اشعر به يحط فوق " بوكان " لور ايضا تشعر بذلك لانتحدث عن ذلك لكن هذا مايبدو على وجهها وفي نظراتها الزائغة .

في الليل لاتنام ونظل ساكنين نحن الاثنين نرصد شجيج البحر اسمع انفاس لور المنتظمة وأعرف أن عينيها مفتوحتين في الظلام . أظل انا ايضا ساكنا على فراشى دون أن انام النموسية مبعدة بسبب الحر استمع الى رقص البعوض لا اخرج أبدا اثناء الليل منذ مرضت أمى لكى لاازعجها لكن في مطلع النهار قبل الفجر ابدأ سباقى عبر الحقول أو اهبط نحو البحر حتى حدود النهر الاسود أعتقد أنى لا زلت أمل في رؤية دونيس وهو يظهر حول الخمائل او وهو جالس تحت شجرة لوز . أحيانا أنادية حسب الاشارة التى كنا قد اتفقنا عليها ونحن نصر قيثارة العشب لكنه لايجىء ابدا لور تعتقد أنه ذهب على جزيرته حتى لو اصبحت اكثر صمتا في الوقت الحالى .

أخذنا نقرأ فصول الرواية التى يظهر كل اسبوع في أخبار لندن المصورة " (نادا ليلى رايدرهاجار) المزينة بنقوش تخيف قليلا وتجعلنا نحلم . الجريدة تصل كل يوم إثنين متأخرة ثلاثة او اربعة اسابيع واحيانا تصل ثلاث اعداد في لفافة واحدة على سفن " ستيمتافيجيش البريطانية الهندية . والدنا يتصفحها في عجالة ثم يتركها على طاولة الممر وهنا نراقب وصولها نحملها الى مخبئنا تحت السقف لتقرأها بمزاجنا ممددين على الارض في خمول الحرارة . نقرأ بصوت مرتفع دون فهم معظم الوقت لكن مع الاقتناع بأن هذه الكلمات تظل محفورة في ذاكرتى الساح " زويك " يقول " أنت تسألنى يأابى لاقول لك شباب " آمسلوبوجاس " " المسمى " بالاليو السلوجترر وحبه لنادا اجمل نساء " زولو " كل سام من هذه الاسماء في اعماقى مثل اسماء الكائنات الحية التى نلتقى بها هذا الصيف في ظلال هذا البيت الذسيتركة قريبا .أنا " موبو " الذى ذبح الملك شاطا " هكذا يقول الرجل العجوز " دينجان " الملك الذى مات من اجل " نادا " " باليكا " الفتاة الشابة التى قتل " شاكا " عائلتها والتى اضطرت ان تصبح زوجته " كاووس " " كلب " مربو " الذى يقترب من سيدة اثناء الليل بينما يراقب جيش " شاكا " الموتى يطاردون الارض التى احتلها " شالكا " لم تستطيع النوم لسماعنا " إيتونجو " واشباح الموتى الذين يتحركون في الانحاء وينادى كل منهم الاخر . أرتعد عندما اسمع لور وهى تقرأ لى وتترجم هذه الكلمات وايضا عندما كان يظهر " شاكا " امام محاربية . " أى شاكا ايها الفيل ! عدالته ناصعة ورهيبة كما الشمس " انظر الى النفوس هنا حيث تحلق نسور الظلام امام قرص الشمس نصف

المختفى في الافق توجد " نادا " ايضا " نادا " الزنبقية بعينيها الكبيرتين وشعرها المجعد ولون بشرتها النحاسى سليلة اميرة سوداء ورجل ابيض الوحيدة التى نجت من " كرا ال " الذى قتله " شاكا " أنها جميلة وغريبة في جلد حيوان " امسك بوجاسى " إبن " شاكا " الذى تعتقد انه اخوها تحبه بجنون أتذكر ذلك اليوم الذى طلبت فيه " نادا " من الرجل أن يحضر لها شبلا وانزلق " امسلوبوجاسى " الى عرين اللبؤة لكن هاهى الاسود تعود من الصيد زأر الذكورلدرجة هزت الارض تعارك " الزولو " مع الاسد لكن اللبؤة امسكت " امسلوبوجاس " في فمها وبكت " نادا " موت شقيقها كم تحب قراءة هذه القصة تعرفها عن ظهر قلب . اللغة الانجليزية التى بدأ يعلمها لنا والدنا هى بالنسبة لنا لغة الاساطير عندما نريد أن نقول شيئا خارق للعادة او سرا نقوله بهذه اللغة كما لو ان احدا لايمكنة أن يفهمها .

أتذكر ايضا المحارب الذى ضرب " شاكا " في وجهه ويقول "اشم رائحة الجنة فوقى " وايضا ظهور ملكة السماء " إنكوسافانا – إى – زولو " التى اعلنت عقاب شاكا القريب " وجمالها كانت رؤيته رهيبة " عندما نسير " نادا " الزئبقية حتى الاجتماع " يهاء نادا كان واضحا على كل مهم ..." هذه هى العبارات التى نرددها دون ملل في الذروة في الضوء الخافت في نهاية اليوم . يبدو لى اليوم انها كانت تحمل في طياتها معنى خاص القلق الاصم الذى يسبق التحولات .

نحلم دائما امام صور الجرائد لكنها تظهر لنا الان صعبة المنال : دراجات " جونون " او دراجات " كوفنترى " الالية وشركاؤة نظارات اوبرا " ليليبوت " التى اتصور اننى استطيع ان اجتاز عمق " مانافانا " ساعات " كيلابس " " من " بنسونز " أو " ووتربورى " منالنيكل بالمينا والمطلية . لور وأنا نقرأ بمهابة كما لو كان بيتا من شعر شكسبير العبارة المكتوبة تحت رسم الساعات " ميزان الساعة دوبلكس ساق العمود بدون مفتاح مقاومة للغبار ضد الكسر غير مغناطيسية " نحب ايضا دعاية صابون بروك الذى يمثل فردا يلعب بالمندولين على اكتمال القمر ونعلن معا :

" نحن ثنائى جوهرى القمر وأنا

اجرف الارض وتنير هى السماء .."

وننفجر في الضحك عيد الميلاد لايزال بعيدا خلفنا – حزينا للغاية هذا العام بسبب الازمات المالية ومرض أمنا وعزلة " بوكان " – لكنا نلهو باختيار هدايانا في صفحات الجرائد لكن بما انها لعبة واحدة لانتردد يفي إختيار الاشياء الاغلى ثمنا لور تختار بيانو دروس الكنيسة الابنوسى وقلادة من اللؤلؤ الشرقى وبروش بالميناوالماس الذهبى والفضى تمثل كتكوتا نخرج من بيضته وهذا يساوى تسعة جنيهات وأنا اختار لها زجاجة من الفضة والزجاج المنقوش وعندى هدية ماما المثالية صندوق الزينة " ممابان " الجلدى مع زجاجات متنوعة

وعلب وقرش ودبابيس وما الى ذلك لور تحب كثيرا هذا الصندوق وتقول انها ستحصل على صندوق مثله هى الاخرى فيما بعد عندما تصير فتاه شابة بالنسبة لى إخترت فانوس سحرى " نجريتى وزامبرا " وحاكى باسطوانات واير وبالتأكيد دراجة " جونون " أفضل انواع الدراجات لور التى تعرف ما أحب اختارت لى علبة مربعات نارية " توم سميث " وهذا ما يضحكنا كثيرا .

تقرأ ايضا الاخبار التى ترجع الى عده اشهر واحيانا الى سنوات كثيرة لكن لايهم حكايات تحطم السفن زلازل اوساكا ونتطلع طويلا للرسوم يوجد ايضا الشاى مع كهنة منغوليا فنارة اينوس " سلطة فواكه " ودراجون المطارد وحورية وحدها وسط قطيع من الاسود في غابة سحرية ورسم واحدة من اساطير " نادا الزنبقية " التى ترعبنا شبح الجبال وهو حجر عملاق مفتوح الفم وهو الكهف الذى ستموت فيه " نادا " الجميلة .

هذه هى الصور التى انظر اليها في زمنها مختلطة بضوضاء الريح في الاشجار الشاقية في الهواء الثقيل للحمم الساخنة عندما يغزو ظل الليل تدريجيا الحديقة حول المنزل وتبدأ ثرثرة البحارة .

ننتظر دون ان نعرف ما ينبغى في المساء تحت النموسية قبل النوم احلم بأننى في سفينة بأشرعة منتفخة تتحرك وسط البحر المظلم وأننى اراقب شرر الشمس اسمع تنفس لور بطيئا ومنظما وأعلم أن عينيها مفتوحتين ايضا بما تحلم ؟ افكر في أننا جميعا فوق سفينة تتجه شمالا نحو جزيرة كابرى المجهولة ثم نقلت فورا الى اعماق اودية النهر الاسود بالقرب من مانانافا هنا حيث الغابة مظلمة وصعبة الاختراق وحيث نسمع احيانا تنهد العملاق ساكالافو الذى قتل لتجنب البيض في المزارع الغابة مليئة بمخابىء وسموم تدوى بصيحات القردة وفوقى يمر امام الشمس ظل الطير البحرى الابيض مانافانا هى مدينة الاحلام .

الايام التى تقودنا نحو يوم الجمعة ٢٩ ابريل طويلة انها مرتبطة بعضها البعض كما لو ان لايوجد غير يوم واحد طويل تتخلله ليال واحلام بعيدا عن الحقيقة خرجت بالفعل في الذاكرة في اللحظة التى رأيتها فيها ولا استطيع أن افهم سوى هذه الايام التى تحمل في طياتها هذا العبء المصيرى كيف يمكننى ان اعرفة وليس لدى استدلالا ؟ البرج فقط هو الذى اراه بين الاشجار عن بعد لانه راصدى لكى ارى البحر وعلى الجانب الاخر صخور الضروع الثلاثة الحادة وجبل السوؤ الذى يحرس حدود هذا العالم .

هناك الشمس الحارقة منذ الفجر تجفف الارض الحمراء على طول الخندق الذى حفرته الامطار المتساقطة على سطح القصدير الازرق كانت هناك عواصف فبراير مع رياح

الشرق وشمال الشرق التى صفرت فوق الجبال والمطر الذى جرف التلال ومزارع الصبر والجداول التى تسببت في بقعة كبيرة في زرقة البحيرات .

لذلك ظل ابى واقفا منذ الصباح في مأمن الشرفة يراقب ستار المطر الذى يتقدم نحو الحقول والذى يغطى قمم الجبال من ناحية جبل " ماشابيه " وكسارة الحديد هنا حيث يوجد مولد الكهرباء عندما كانت الارض غارقة في اشمس المشرقة جلست على اسوار الشرفة وأنا انحت تماثيل صغيرة من الطين لامى " كلب حصان عساكر وايضا سفينة صواريها من الاعشاب والاشرعة من الاغصان .

والدى كثيرا ما يذهب الى بور لوى ومنه يستقل قطار " فلوياك " لزيارة عمتى آديلاييد هى التى ستستضيفنى العام القادم عندما التحق الكلية الملكية كل هذا لايعنينى على الاطلاق انه خطر يثقل هنا على عالم بوكان كعاصفة غير مفهوةمة .

اعلم انى اعيش هنا وليس في اى مكان آخر هذا هوالمشهد الذى امعن النظر فيه دون أن امل منذ زمن طويل حيث اعرف كل حفرة كل رقعة ظل كل مخبأ .ودائما خلفى الهاوية المظلمة لخوانق النهر الاسود ووادى مانانافا الغامض .

هناك مخابىء المساء ايضا وشجرة الخير والشر حيث اذهب مع لور تحط على الفروع الرئيسية سيقاننا متدلية ونبقى هنا دون ان نتخاطب ونحن ننظر الى الضوء القريب تحت كثافة اوراق الشجر عندما يبدأ سقوط المطر نحو المساء نسمع صوت القطرات على اوراق الشجر العريضة كما الموسيقى .

لدينا مخبأ اخر انه واد في اسفله يتدفق جدول دقيق يصب بعيدا جدا في نهر بوكان تأتى النساء احيانا لتستحم اسفل قليلا او قطيع من الماعز يقودة صبى سغير لور وأنا نذهب حتى اخر الوادى هنا حيث توجد منصة وشجرة تمر هندى قديمة تميل فوق الفراغ .

بسيقان متفرجة فوق الجذع تزحف نحو الفروع ونبقى هناك الرأس تميل نحو الغابة ونحن نحلم ونراقب تسرب المياه في اعماق الوادى فوق صخور الحم لور تعتقد ان هناك ذهبا في الجدول ولهذا تأتى النساء لغسل ملابسهن ولكى يكتب نسيج ملابسهن لمعانا ثم نشاهد المياه المتدفقة بلا نهاية ونحن نبحث عن إنعاكاسات الشمس في الرمال الوداء على الشواطىء عندما نكون هنا لانفكر في اى شىء بعد ولا نشعر ابدا بالتهديد لم نعد نفكر في مرض ماما ولا في المال الذى يقل ولا في العم لودوفيك الذى بصدد شراء اراضينا لصالح مزارعة ولهذا نذهب الى هذه المخابىء .

عند الفجر غادر والدى الى بور لوى في العربة التى بجرها حصان خرجت الى الحقول على الفور وذهبت اولا الى الشمال لكى ارى الجبال التى احبها ثم ادرت ظهرى لمانافانا

والانا سير نحو البحر وحدى لور لا تستطيع ان تأتى معى لانها ليست على مايرام .هذه هى المرة الاولى التى تقول لى هذا والتى تحدثنى فيها عن الدم الذى يأتى للنساء عند وقت القمر ثم لاتتكلم عن هذا مطلقا كما لو كان الخجل قد جاء متأخرا أتذكرها في هذا اليوم فتاه صغيرة شاحبة ذات شعر طويل اسود تبدو عنيدة بهذا الجبين الجميل المستقيم جدا حتى تعبث في الدنيا وفي شىء ما تغير بالفعل يبعدها يجعلها غريبة . لور تقف في الشرفة ترتدى فستانها الطويل القطنى الازرق الناصع ذو الاكمام مالمشمرة تكشف ذراعيها الرفيعتين وابتسامتها عندما أهم بالذهاب تبدو وكأنها تقول : أنا شقيقة رجل الغابات .

أعدو دون أن اتوقف حتى سفح البرج قريبا جدا من البحر لا ارغب ابدا في الذهاب الى شاطىء النهر الاسود ولا على حواجز تاماران الرملية بسبب الصيادين منذ المغامرة في الزورق منذ عوقبنا دونيس وأنا وفرقوا بيننا لااريد ابدا الذهاب الى حيث ذهبنا من قبل .وصلت الى اعلى البرج او فوق النجم في مخابىء الادغال وشاهدت البحر والعصافير حتى لور لاتعرف اين تجدنى .

انا وحدى واتحدث الى نفسى بصوت مرتفع اطرح الاسئلة والاجابات هكذا :

"هيا سنجلس هنا

اين هذا ؟

هناك على الصخرة المسطحة

هل تبحث عن أحد ؟

لا لايارجل انى اراقب البحر

هل تريد أن ترى الغربان ؟

انظر باخرة تعبر هل ترىاسمها ؟

اعرفها انها " أرجو " انها باخرتى تجىء للبحث عنى

هل سترحل ؟

نعم سأرحل قريبا غدا او بعد غد سأرحل ...."

انا فوق النجمة عندما يبدأ المطر في الهطول

كان الجو جميلا والشمس كانت تحرق الجلد متخلله ملابسى وكانت المداخن تطلق دخانها بعيدا في حقول القصب اتطلع على امتداد البحر الازرق الداكن العنيف ماوراء الشعب المرجانية .

المطر يهطل يجتاح البحر من ناحية بور لوى ستار كبير رمادى على شكل نصف دائرة يأتى نحوى بسرعة قصوى أنها مفاجأة لم أفكر حتى في البحث عن مأوى اظل واقفا على نتوء صخرى القلب يدق احب بؤية المطر وهو يهطل .

في البداية لاتوجد رياح كل الضوضاء سكنت كما لوان الجبال كانت تستعيد انفاسها هذا ايضا ما يجعل قلبى يدق هذا الصمت الذيفرغ السماء ويجمد كل شىء .

بضربة واحدة تقبل الرياح الباردة نحوى تدفع اوراق الشجر ارى الامواج تزحف على حقول القصب دوامة الرياح تغطينى بعواصف تجبرنى على جلوس القرفاء فوق الصخرة حتى لا انجرف من ناحية النهر الاسود ارى الشىء نفسه الستار الكبير الداكن الذى يركض نحوى يعطى البحر والارض ففهمت انه ينبغى على ان ارحل بسرعة شديدة ليست مجرد امطار انها عاصفة اعصار مثل الذى حدث في برابر واستمر يومين وليلتين لكن اليوم يسود هذا الصمت كما لم اسمع عنه من قبل ومع ذلك لا اتحرك لا اتمكن من ابعاد نظرى عن الستار الكبير الرمادى الذى يتقدم بكل قوة نحو الوادى وفوق البحر ويجتاح التلال والحقول والاشجار الستار غطى بالفعل القواطع ثم يختفى جبل السور الضروع الثلاثة السحابة الداكنة مرت فوق رؤوسهم ومحتهم الان تتجه نحو منحدر الجبال في اتجاه تاماران ومدق بوكان افكر فجأة في لور وامى المقيمان وحدهما بالمنزل ينتزعنى القلق لمشهد المطر الذى يتدفق اقفز من فوق الصخرة واهبط باسرع مايمكننى منحدر النجمة دون تردد خلال الشجيرات التى تخدش وجهى وساقى اجرى كما لو ان قطيعا من الكلاب المسعورة في اعقابى كما لو كنت غزالا هاربا من " مصيدة " دون ان افهم اجد كل الاختصارات اهبط منحدرا جافا يتجه نحو الشرق وفي لحظة واحدة اكون في بانون .

يضربنى الريح وينهار فوقى حائط المطر لم اشعر بذلك من قبل الماء يغطينى يسيل على وجهى يدخل في فمى في انفى اختنق لا ارى ارتبك في الريح الضجيج بشكل خاص هو الذى يخيف ضوضاء عميقة وثقيلة تدوى في الارض واعتقد ان الجبال تتداعى ادير ظهربللعاصفة واسير على اربع وسط الشجيرات .فروع الشجر المنزوعة مزقها الهواء تتطاير كالسهام واجلس القرفصاء تحت شجرة كبيرة اخفى رأسى بين ذراعى وانتظر اللحظة التالية مرت العاصفة سقطت امطار في السيول لكنى استطيع الجلوس والتنفس وأن ارى اين أنا . الفرشاة على حافة الوادى قد داسوا عليها ليس بعيدا شجرة كبيرة مثل تلك التى آوتنى اطيح بها مع جذورها التى لاتزال ثابتة في الارض الحمراء .أعود للسير على

نحو عشوائى وفجأة وبهدوء أرى تل سان مارتان وانقاض مصنع السكر القديم لامجال لاى تردد : هذا هو المكان الذى سوف أوى ليه .

أعرف هذه الانقاض رأيتها كثيرا عندما كنت اعبر القفار مع دونيس هو لم يشأ ان يقترب يقول أن هذا هو منزل مونامونا الذى ضربوا فيه " برميل الشيطان " في الجدران القديمة احتمى في زاوية تحت قسم من السقف ملابسى المبلله تلتصق بجلدى أرتعش من البرد ومن الخوف ايضا اسمع الرياح القادمة عبر الوادى هذا يحدث صوت حيوان ضخم يختفى فوق الاشجار ويسحق الشجيرات والفروع ويحطم الجذوع التى تشيه الاغصان المياة الغزيرة تتقدم على الارض وتحيط بالانقاض وتتوالى نحو الوادى . التيارات تتبدى كما لو كانت المصادر تتولد من الارض . الماء ينساب ينجرف يصنع عقدا ودوامات لم تعد هناك سماء ولا ارض فقط هذه الكتله السائلة والرياح التى تحمل الاشجار والطين الاحمر انظر امامى مباشرة على امل رؤية السماء خلال حائط الماء اين انا ؟ اطلال بانون ربما تكون كل ماتبقى على الارض والفيضان ربما يكون قد اغرق الجميع اردت أن اصلى لكن اسنانى اصطكت ولم اعد اتذكر حتى الكلمات اتذكر فقط قصة الطوفان التى قرأتها علينا امنا في الكتاب الاحمر الكبير عندما داهم الماء الارض وغطتها حتى الجبال والسفينة الضخمة التى بناها نوح لكى يهرب وكان قد وضع فيها زوجين من كل انواع الحيوانات أما انا فكيف يمكننى ان اصنع سفينة ؟ لو كان دونيس هنا ربما استطاع انس صنع زورقا اوعوامة بجذوع ولماذا يواصل الله معاقبة الارض ؟ هل لأن الناس اكثر صلابة كما يقول ابى وانهم يأكلون فقر العمال في المزارع . ثم افكر في لور وماما في البيت المهجور وقد سيطر على القلق بقوة لدرجة استطيع فيها ان اتنفس بالكاد كيف اصبحنا ؟ الرياح الغاضبة الجدار السائل ربما يكون اغرقها وغسلها واتخيل لور وهى تناضل في نهر الوحل في محاولة للتعليق بفروع الاشجار وهى تنزلق نحو الوادى .رغم سرعة الرياح والمسافة انهض واصيح " لور ! ...لور !"

لكنى ادر ك ان هذا لا طائل منه فضوضاء الرياح والمياة تغطى على نداءاتى لذلك جلست من جديد في مواجهه الجدار وجهى مختفى بين ذراعى والماء الذى يتدفق فوق رأسى يختلط بدموعى لأنى اشعر بيأس مطبق وفراغ مظلم يبتلعانى دون ان اتمكن من عمل شيء واقع جالسا على كعبى خلال الارض السائلة .

أبقى طويلا دون حراك بينما تتغير السماء فوقى وتتقدم جدران الماء مثل الامواج اخيرا يسقط المطر ويعصف الريح انهض اسير اصم الاذنين بالصخب الذى توقف . السماء تمزقت في الشمال وأرى ظهور ظل جبل السور والفروع الثلاثة لم تبد لى في مثل هذا الجمال قلبى يخفق بقوة كما الو أن اشخاصا حميمين فقدتهم ثم وجدتهم من جديد شخصيات غير حقيقية زرقاء داكنة وسط السحب الرمادية أرى كل تفاصيل خطهم كل صخرة السماء حولها ساكنة تهبط الى هوة تاماران التى تنبثق ببطء من صخور اخرى وتلال اخرى ارى على البحر وأنا استدير سحبا وجزر التلال المحيطة : البرج جبل الارض الحمراء والحديد المكسور والنظرة الجامدة .بعيدا " النظرة الكبيرة ؟ مضاء بشمس لاتصدق .

كل هذا جميل بالفعل أن ظل بلا حراك تأخرت في مشاهدة المنظر الطبيعى الجريح حيث يقع الغيوم تتشبث من ناحية الفروع الثلاثة نحو كاسكاد ربما يوجد قوس قزح رائع أردت تماما أن تكون لور معى لكى ترى هذا تقول أن أقواس قزح هى طرق المطر . قوس قزح له قدرة يميل نحو الغرب فوق قاعدة الجبال ويهبط حتى الجانب الاخر من الحدود نحو فلوريال أو نحو فونيكس . الغيوم الكثيفة لازالت تتجمع لكن فجأة في شق أرى فوقى السماء زرقاء صافية مبهرة كما لو كان الوقت يقفز الى الوراء على عكس مسارة هناك لحظات اخرى وكان المساء وقد تلاشى الضوء لكنه مساء لا ينتهى يؤدى الى العدم والان ارى انها الظهيرة بالضبط الشمس في اوجها واشعر بحرارتها وضوءها على وجهى وعلى يدى .

جريت خلال العشب الرطب وهبطت التل من جديد نحو وادى بوكان في كل مكان الارض جرداء والجداول مليئة بالماء الاحمر واكسيد الرصاص وتوجد اشجار مقطوعة في طريقى لكنى لم أخذ حذرى . أنتهى الامر هذا ما افكر فيه كل شىء انتهى بما ان قوس قزح ظهر ليرسخ سلام الله .

عندما اصل امام منزلنا يقطع القلق قواى الحديقة والمنزل سليمين يوجد فقط اوراق شجر وفروع مكسورة تملأ الممر وبرك طين في كل مكان .لكن ضوء الشمس يسطع على السقف المنير وعلى اوراق الشجر وكل شىء يبدو جديدا اكثر ومنعشا .

لور في الشرفة مأن رأتنى صاحت " اليكسى ! .." جرت نحوى واحتضنتنى ماما هنا ايضا تقف امام الباب شاحبة قلقة قلت لها بلطف " انتهى ياماما كل شىء انتهى لن يكون هناك طوفان ! " لا اراها تبتسم لذلك فقط فكرت في والدنا الذى ذهب الى المدينة احسست بألم " لكنه سيأتى الان ؟ سيأتى ؟ " ماما ضغطت على ذراعى وقالت بصوتها الاجش " نعم بالتأكيد سيأتى .." لكنها لم تستطع أن تخفى قلقها وكان على ان اردد وأنا امسك بيدها بكل قوتى " أنتهى الان لا لم يعد هناك شيئا نخشاة "

جلسنا معا ملتصقين في الشرفة نراقب اعماق الحديقة والسماء حيث تجمعت من جديد سحب كبيرة سوداء لايزال هذا الصمت الغريب يهدد ويثقل على الوادى حولنا كما لو كنا وحدنا في الدنيا .كوخ كوك فارغ غادر هذا الصباح مع زوجته الى النهر الاسود في الحقول لانسمع صرخة ولا ضوضاء سيارة .

أنه هذا الصمت الذى يقتحم اعمق اعماق جسدنا صمت التهديد والموت الذى لايمكن أن انساه لاتوجد عصافير على الشجر ولا حشرات ولا حتى ضوضاء الريح في قمم الاشجار الساقبة الصمت اقوى من الضوضاء يبلعة وكل هذا الفراغ يتبدد حولنا نظل ساكنين في الشرفة ارتعش في ملابسى المبلله اصواتنا عندما نتكلم تتردد بطريقة غريبة على البعد وكلماتنا تتبدد على الفور .

ثم يصل الى الوادى صوت الاعصار مثل قطيع يعدو خلال المزارع والادغال واسمع ايضا ضوضاء البحر مرعبة عن قرب نبقى مجمدين في الشرفة واشعر بالغثيان في حلقى لانى افهم ان الاعصار لم ينته كنا في عين الزوبعة حيث كل شىء هادىء وصامت الان اسمع الريح القادم من البحر القادم من الجنوب وعلى نحو متزايد بقوة جسد الحيوان الضخم الغاضب الذى يحطم كل شىء في طريقة .

هذه المرة لايوجد حائط المطر الريح هو الذى يأتى وحدة أرى الاشجار تتحرك بعيدا والسحب تتقدم مثل الدخان طويلة مسحوبة عليها بقع ارجوانية أنها السماء التى تخيف تماما تتحرك بكل سرعة تنفتح وتنغلق ولدى انطباع بأنها تنزلق الى الامام وتسقط .

" بسرعة ! بسرعة ياأولادى ! "

ماما هى التى تكلمت في النهاية صوتها اجش لكنها نجحت في كسر السحر وجاذبيتنا الرائعة امام السماء وهى على وشك ان تدمر تجذبنا وتدفعنا داخل المنزل في حجرة الطعام ذات المصاريع المغلقة سدت الباب بالكتل المنزل ملىء بالظل مثل سفينة من الداخل حيث نسمع الرياح القادمة رغم الحرارة الثقيلة ارتجف من البرد والقلق ماما لاحظت تذهب الي حجرتها بحثا عن غطاء اثناء غيابها ضرب الريح امنزل مثل انهيار جليدى لور تلتصق بى ونسمع الواح الخشب تصرخ الفروع المكسورة تصطدم بجدران المنزل والحجارة تضرب الشيش والباب .

خلال مصاريع الشيش نرى فجأة ضوء النهار وهو ينطفىء وافهم أن السحب تغطى الارض من جديد ثم يسقط الماء من السماء ويضرب الجدران داخل الشرفة يتسرب تحت الباب وعبر النوافذ ويحول الارضية حولنا الى جداول داكنة بلون الدم لور تنظر الى الماء الذى يتقدم نحونا يتدفق حول المائدة الكبيرة والكراسى ماما تعود وارتعد من نظرتها لانى اخذت الغطاء لكى احاول عرقلة الفضاء تحت الباب لكن الماء يبعدة ويفيض على الفورعويل الريح في الخارج يصعقنا ونسمع ايضا طقطقة الكربون المروعة انفجارات الشرائح المنزوعة المطر يغمر الان الاسقف وافكر في صحفنا القديمة وكتبنا وكل مانحب وسوف يدمر الريح سحق المناور واخترق الاسقف وهو يزمجر ويحطم الاثاث في هدير مدو يقتلع شجرة تسحق واجهه المنزل الجنوبية والنوافذ نسمع ضوضاء الشرفة التى تتداعى ماما اخرجتنا بعيدا عن حجرة الطعام في لحظة اختراق فرع شجرة ضخم احدى النوافذ .

الريح يدخل عن طريق فجوة مثل حيوان غاضب وغير مرئى وفي لحظةجاءنى انطباع بأن السماء هبطت على المنزل لكى تحطمة اسمع قرقعة الاثاث الذى يتدحرج والنوافذ التى تتحطم ماما اخرجتنا لا ادرى كيف من الناحية الاخرى من المنزل هربنا الى مكتب والدنا

وبقينا فيه محتشدين نحن الثلاثة في مواجهة الجدار حيث توجد خريطة رودريج ولوحة السماء الكبيرة المصاريع مغلقة لكن رغم هذا فأن الريح حطمت النوافذ وماء الاعصار يسيل على الباركية وفوق المكتب وفوق الكتب واوراق والدنا لور تحاول برعونة ان ترتب بعض الاوراق ثم تجلس محبطة في الخارج خلال مصاريع الشيش السماء مظلمة لدرجة اننا اعتقدنا انه الليل الريح يصفر حول المنزل ويدور ضد حاجز الجبال ودون توقف هدير الاشجار ينكسر حولنا .

" صلوا " هكذا قالت ماما تخفى وجهها بين يديها وجه لور شاحب تنظر دون ان تطرف نحو النافذة وانا احاول ان افكر في رئيس الملائكة جبريل افكر فيه دائما عندما اشعر بالخوف فهو كبير مكسو بالضوء مسلح بسيف هل من الممكن ان يديننا وأن يتخلى عنا بإزاء غضب السماء والبحر ؟ الضوء لايكف عن التدهور ضوضاء الريح صاخبة وحادة واشعر بأن جدران المنزل تهتز وقطع من الخشب تنخلع من الشرفة الالواح تزعت من السقف الفروع تحوم حول النوافذ مثل الاعشاب ماما تحتضننا لاتصلى هى الاخرى تتطلع بعينين محدقتين خائفيتين بينما هدير الريح يرعب قلوبنا لا افكر في شىء لم اعد قادرا على قول اى شىء حتى لو اردت ان اتكلم فأن الضوضاء تمنع ماما ولور من سماعى تمزق لانهائى يذهب حتى اعماق الارض وموجه تشن علينا بطء لا محالة .

هذا يدوم طويلا وتسقط عبر السماء الممزقة خلال الارض المفتوحة اسمع البحر كما لم اكن سمعته ابدا من قبل لقد عبر حواجز الشعاب المرجانية وسعد حتى مصب الانهار وهو يدفع امامة السيول التى تفيض اسمع البحر في الريح لم اعد اتمكن من الحركة كل شىء انتهى بالنسبة لنا لور تسد اذنيها بيديها وهى تميل على ماما دون ان تتكلم ماما تركز عينيها الاخذتين في الاتساع على مساحة النافذة المظلمة كما لو كانت تحافظ عن بعد على غضب العناصر منزلنا الفقير اهتز في كوم الارضية جزء من السقف مزق على الواجهه الجنوبية غزارة الماء والرياح خربت القطع المخلوعة تقسيم خشب المكتب تصدع هو الاخر فجأة عن طريق الثقب الذى احدثته الشجرة رأيت كوخ الكابتن كوك يطير في الهواء كلعبة رأيت ايضا قوس الخيرزان ينثنى حتى الارض كما لو ان يدا خفية ضغطت علية اسمع على البعد الريح التى تصطدم بسور الجبال مع قعقعة رعدية تنضم الى ضجيج البحر الذى يئن والذى يصعد الى الانهار .

في أى لحظة عرفت أن الريح اصبح اقل ؟ لا اعرف قبل عدم توقف ضجيج البحر وقرقعة الاشجار في داخلى أنا متأكد شىء ما تحرر تنفست والحلقة التى تقلصت معابدى هزمت .

ثم سقط الريح بضربة واحدة واطبق من جديد صمت عميق حولنا سمعنا جريان المياة في كل مكان على السطح وفي الاشجار وحتى في المنزل والاف الجداول كانت تتدفق .الخيرزان كان يقرقع عاد ضوء النهار رويدا رويدا وكان ضوء الغسق الناعم الدافيء ماما

فتحت المصاريع بقينا في المكان دون ان نجرؤ على التحرك ملتصقين احدنا في الاخر ننظر من النافذة الى ظلال الجبال التى تنشأ من السحب وكانت مثل أناس متآلفة ومطمئنة .

بعدها أخذت ماما تبكى في هذا الوقت لانها كانت مضغوطة للغاية وفجأة مع هذا الهدوء كانت تنقصها الشجاعة لور وأنا أخذنا نبكى ايضا واذكر وكما أعتقد انى لم ابك ابدا هكذا تمددنا على الارض مباشرة ونمنا متعانقين بسبب البرد .

إنه صوت والدنا الى ايقظنا عند الفجر هل جاء في الليل ؟ اذكر وجهه الشاحب وملابسة الملطخة بالطين وهكذا روى كيف في ذروة الاعصار قفز من عربته ورقد في حفرة على جانب الطريق حيث مرت العاصفة فوقه وجرت العربة والحصان لايدرى احد اين شاهد اشياء خارقة سفنا غارقة داخل اراض حتى فروع اشجار الادارة العسكرية البحر المنتفخ يغزو مصبات الانهار ويغرق الناس في اكواخهم الريح خاصة الذى قلب كل شىء الذى نزع اسطح المنازل الذى حطم مداخن مصانع السكر وهدم المخازن وبدد نصف بورلوى عندما تمكن والدنا من الخروج من خندقه اوى ليلا في خص للسود بالقرب من " ميدين " لان الطرق كانت تغمرها المياة عند مطلع النهار صحبة رجل هندى في عربته حتى تاماران إيستات ولكى يصل الى بوكان كان على ابى ان يعبر النهر وقد وصلت المياه الى صدرة يتكلم ايضا عن بارومتر ابى كان في احد مكاتب رومبار ستريت عندما هبط مؤشر البارومتر .

يقول ان هذاكان شيئا لايصدق ومرعبا لم ير ابدا مؤشر البارومتر يهبط الى هذا الحد بهذه السرعة كيف يمكن ان يكون سقوط الزئبق مرعبا ؟ أنا لا افهم هذا لكن صوت ابى عندما تكلم عن هذا بقى في أذنى لا استطيع ان انساه .

في وقت لاحق وجد نوع من الحمى أعلن نهاية سعادتنا نعيش الان في الجناح الشمالى للمنزل في الغرف الوحيدة التى نجت من الاعصار في الناحية الجنوبية البيت نصف منهار دمرته المياه والرياح السقف محطم الشرفة لاوجود لها مالا يمكننى نسيانة ابدا الشجرة التى إخترقت جدار المنزل والفرع الاسود الطويل الذى اخترق شيش نافذة حجرة الطعام والذى ظل ساكنا مثل ظفر حيوان اسطورى ضرب بقدرة الرعد.

لوروانا غامرنا عن طريق السلالم المفككه حتى المخزن من خلال فتحات في السقف سكب الماء يعنف ودمر كل شىء اكوام من الكتب والجرائد ولم يبق غير بعض الاوراق المبلله لانستطيع حتى المشى في الجملون لان الارضية منبعجة في كل مكان والهيكل منفصل النسيم الضعيف الذى يأتى من البحر كل مساء صدع كامل هيكل المنزل الضعيف حطام هكذا يبدو منزلنا في الحقيقة حطام سفينة غارقة .

نطوف كل الانحاء لقياس حجم الكارثة نبحث عما كان لايزال هنا امس الاشجار الجميلة ومزارع النخيل واشجار الجوافة واشجار المانجو وكتل من نباتات الزينة والكركدية نتجول مترنحين كما لو كنا نتحرك بعد مرض طويل في كل مكان ترى الارض دامية وقذرة مع اعشاب نائمة فروعها مكسورة والاشجار جذورها مقلوبة نحو السماء مع لور اذهب حتى المزارع بالقرب من يمن وتاماران وفي كل مكان القصب الخام مقصوص بحاصدة عملاقة

حتى البحر تغير من اعلى نجم البحر ارى طبقات الوحل الضخمة موزعة على البحيرة عند مصب النهر الاسود لم تعد توجد قرية واحدة افكر في دونيس هل تمكن من الهرب ؟

لور وأنا ظللنا معلقين طوال اليوم تقريبا اعلى هرم خلاسى وسط حقول شاسعة توجد رائحة غريبة في الهواء رائحة غثه يحملها الريح عن طريق العواصف ومع هذا فالسماء صافية والشمس تحرق وجوهنا وايدينا كما في عز الصيف حول بوكان الجبال خضراء داكنه جلية تبدو اكثر قربا عن ذى قبل نشاهد كل هذا البحر وراء الصخور والسماء لامعة والارض دامية هكذا ودون ان نفكر في شيء تحترق عيوننا من التعب لايوجد احد في الحقول لا احد يمشى على الطرق .

الصمت ايضا في منزلنا لم يأت احد منذ العاصفة تأكل بالكاد قليلا من الارز مصحوبا بشاى ساخن ماما تظل راقدة فوق سرير مؤقت في مكتب والدنا وننام نحن يفي الممر لانها الاماكن الوحيدة التى لم يتعرض لها الاعصار ذات صباح صحبت ابى حتى الحوض في " ايجريت" تقدمنا عبر الاراضى الشاسعة في صمت نعلم مقدما ما سوف نجدة وهذا ضغط على الحلق في اماكن اخرى على حافة الطريق سيدة عجوز سوداء من مرتدى الخيش تجلس امام بقايا منزلها عندما مررنا رفعت قليلا فقط شكواها وتوقف ابى لكى يعطيها قطعة نقود عندما وصلنا امام الحوض رأينا على الفور ماتبقى من المولد الكهربائى الماكينة الجميلة الجديدة قلبت غاطسة الى النصف في المياة الموحلة اختفى العنبر ولم يتبق من اداه الدفع سوى قطع من الصفيح الملتو يصعب التعرف عليها توقف ابى قال فقط بصوت مرتفع وبوضوح انتهى كل شيء انه كبير وشاحب يلمع ضوء الشمس على شعرةوعلى لحيته السوداء يقترب من المولد الكهربائى دون ان يأخذ حزرة من الطين الذى يصل الى منتصف ساقية له حركة طفوليه تقريبا لكى يحاول ان يقوم الجهاز ثم يقوم بنصف استدارة ويبتعد على الدرب عندما يمر بالقرب منى يضع يده على رقبتى ويقول " هيا نعود " هذه اللحظة مأساوية حقا يبدو لى إذن كل شيء انتهى وللابد وعيناى وحلقى إمتلأوا بالدموع مشيت بسرعة في اثر أبى وأنا انظر الى خياله العالى النحيف والمقدس خلال هذه الايام كل شيء يتجه الى نهايته لكنا لاندرك هذا بعد جيدا .

تشعر لور وأنا بهذا الخطر بتحديد اكثر يجيء هذا مع الاخبار الاولى من الخارج التى اشاعها عمال المزارع ومرتدو الخيش من اليمن والها للا الاخبار تجيء وتتردد ويبالغ فيها تحكى عن الجزيرة التى دمرتها العاصفة بورلوى يقول ابى هى مدينة مبارة مثلما يحدث بعد تفجير قنبلة . معظم البيوت الخشبية دمرت وشوارع كاملة إختفت ، شارع السيدة وشارع ايميكيلان وشارع الفلفل من جيل سينيو حتى حقل مارس لايوجد غير اطلال الملانى العامة والكنائس انهارت واحترق أناس احياء في الانفجارات في الرابعة بعد الظهر يحكى أبى كان مؤشر البارومتر منخفضا للغاية وصفر الريح بنسبة اكثر من مائة الف في الساعة وبلغ مائة وعشرين الف زيادة عما تقول . البحر تضخم بطريقة مخيفة يغطى الشواطىء والزوارق القيت حتى مائة مترا داخل الاراضى على شاطىء روميار البحر طغى على النهر بفجاجة والسكان غرقوا اسماء القرى المدمرة تشكل قائمة طويلة البركة الجميلة روزهيل العور الاربعة فاكووا فونيكس بالما مدينة رؤى جميلة في بركة على الجانب الاخر من الفروع الثلاثة سطح مصنع للسكر انهار ودفن مائة وثلاثون رجلا كانوا ايضا في بامبو وفي المياة الجميلة وشمال الجزيرة ومابو جبل المذاق وفرباش عدد الضحايا يرتفع كل يوم اناس يجرفهم نهر الطين واناس مسحوقين تحت المنازل وتحت الاشجار ابى يقول يوجد عدة مئات من الموتى لكن في الايام التالية بلغ الرقم الف ثم الف وخمسمائة .

لور وأنا ظللنا طوال اليوم بالخارج غائبين مختفيين في البساتين المكرومة حول المنزل دون أن نجرؤ على الابتعاد . سوف نرى الوادى حيث السيل الجارف لايزال مليئا بالغضب ومحملا بالطين والفروع المكسورة او من اعلى شجرة شالتا ننظر الى الحقول المدمرة التى اشعلتها الشمس نساء الخيش يجمعن القصب البكر ويطلقون على الارض الموحلة اطفال جياع يجيئون لسرقة الفاكهه الساقطة والكرنب الملفوف بالقرب من منزلنا .

ماما تنتظر في المنزل صامتة ترقد على ارض المكتب مغطاه بأغطية رغم الحر وجهها محترق من الحمى وعيناها حمراوين تلمعان بتألق مؤلم .

ابى لايزال في الشرفة المتداعية ينظر على البعد خط الاشجار وهو يدخن سجائر دون ان يتحدث الى احد .

في وقت لاحق عاد كوك مع ابنته تحدث قليلا عن النهر الاسودوعن قوارب غارقة ومنازل مدمرة كوك الطاعن في العمر يقول انه لم يعرف هذا منذ الزمن الذى جاء فيه للمرة الاولى في الجزيرة عندما كان عيدا حدث الاعصار الذى حطم مدخنة الاقامة الجبرية التى كادت أن تقتل الحاكم باركلى لكنه قال ان هذا لم يكن حتى بالقوة ذاتها نعتقد انه بما ان العجوز كوك لم يمت وانه عاد فإن كل شىء سيعود كما كان من قبل لكنه نظر الى ماتبقى من كوخة وهو يهز رأسة وركل بقدمه بعض اطراف الخشب ثم قبل ان نتمكن من الفهم

ذهب من جديد " اين هو كوك ؟ " تسأل لور إبنته تهز كتفيها " رحل يا آنسة لور " وأين ذهب ؟ " في خصة يآانسة لور " لكنه سيعود ؟ " لور صوتها قلق " متى سيعود ؟ " إجابة ابنة كوك تهز القلب " الله يعلم يآنسة لور .ربما لن يعود أبدا " جاءت تبحث عن طعام وقليل من النقود الكابتن كوك لن يعيش هنا بعد ذلك لن يعود ابدا نعرفة جيدا .

بوكان ظلت أذن كما هى منذ العاصفة مكان وحيد منعزل عن العالم جاء مزارع اسود مع ثيرانه لسحب الجذوع التى كانت قد خرقت حجرة الطعام مع ابى ازلنا كل الحطام الذى غطى المنزل : اوراق زجاج اوانى فخارية مختلطة بفروع واوراق في الوحل بجدرانها المثقوبة الشرفة المنهارة والسقف الذى ترك السماء ترى اصبح منزلنا يشبة ايضا واكثر حطام سفينة نحن انفسنا غرفى متمسكين بحطامهم على امل ان كل شىء سيعود الى مكان عليه من قبل .

لمحاربة القلق الذى يزداد كل يوم غادرنا لور وأنا بعيدا للغاية عبر المزارع حتى حدود الغابات نذهب كل الايام يجذبنا وادى مانانافا المظلم حيث يعيش قس الذيل الدى جال عاليا جدا في السماء لكنه هو ايضا إختفى اعتقد ان الاعصار حمله هشمه في مواجهة حواجز الشعب أو القى به بعيدا على الساحل بحيث لايمكنة ان يعود ابدا .

كل يوم نبحث عنه في السماء الخالية الصمت رهيب في الغابة كما كان الريح سيعود .

الى اين ؟ لكن لم يعد يوجد رجال هنا لم تعد نسمع نباح الكلاب في المزارع ولا صراخ الاطفال بالقرب من الجداول لم يعد مزيد من الدخان في السماء نطفو على هرم خلاسى نتطلع الى الافق في اتجاه كلارنس دى وولمار الادخنة توقفتفي الجنوب نحو النهر الاسود السماء دون اثر لانتحدث نظل معرضين لشمس الظهيرة ننظر الى البحر على البعد حتى تصاب عيوننا بالاذى .

في المساء نعود بقلب حزين الى بوكان الحطام دائما هنا في نصف انهيار على الارض التى لاتزال رطبة في انقاض الحديثة المدمرة نتسلل خلسة الى داخل المنزل اقدامنا حافية على الارضية حيث الارض كونت بالفعل طبقة من الغبار الكثيف لكن والدنا لم يلاحظ غيابنا نأكل مانجدة وقد جوعتنا تجولاتنا الطويلة : فاكهة ملتقطة في الممتلكات الخاصة بيض الارز في الوعاء الكبير الذى يجعله والدى يغلى كل صباح .

ذات يوم عندما كنا بالقرب من الغابة كونيج طبيب فلوريال جاء من اجل ماما لور هى التى ترى اثر عجلات عربته في الطريق الموحل وهو عائد لاأجرؤ على الذهاب بعيدا وانتظر مضطربا بينما تجرى لور حتى الشرفة وتقفز في المنزل عندما ادخل بدورى من الواجهه الشمالية أرى لو ر التى تمسك بماما وتحتضنها وتضع رأسها على صدرها ماما تبتسم .

رغم تعبها .تذهب ناحية الخزانة حيث يوجد موقد الكحول .

تريد ان تسخن ارزا وتعد شايا لنا

" تناولا الطعام ياولدى " كلا الوقت متأخر جدا أين كنتما ؟" تتكلم بسرعة بنوع من الضيق لكن سعادتها ليست مختلفة .

سنرحل ونترك بوكان "

" الى اين نحن ذاهبون ياماما ؟ "

" آه لاينبغى أن اقول لكما ليس الامر مؤكدا بعد واخيرا الامر ليس محددا تماما بعد سنذهب الى الغابة الجانبية والدكما وجد منزلا ليس بعيدا عن عمتكما آديلاييد "

إحتضنتنا ولم نشعر بشىء آخر غير سعادتها لانفكر في شىء آخر والدى عاد من جديد الى المدينة في عربة كونيج بلا شك عليه ان يعد المغادرة والمنزل الجديد بالغابة الجانبية فيما بعد عرفت كل مافعله إذن في محاولة لتأخير ما لا مفر منه عرفت كل الاوراق التى وقعها للمرابين في المدينة سندات الدين والرهونات العقارية والقروض على العهدة كل اراضى بوكان والبور وفدادين الحديقة والغابات حتى المنزل ذاته كل شىء كان قد وضعه في هذا الجنون هذا المولد الكهربائى للماء في ايجريت الذى كان من شأنه ان يحقق التقدم لكب غرب الجزيرة ولم يكن ابدا اذن غير كومة من الخردة غاصت في الوحل كيف كان يمكننا ان نفهم ذلك نحن الذين لم نكن غير اطفال ؟ لكنا لسنا في حاجة لفهم الاشياء في ذلك الوقت كنا نخمن رويادا رويدا كل ما لايقال لنا عندما هب الاعصار عرفنا جيدا ان كل شىء قد ضاع بالفعل كان مثل الفيضان .

" هل هو العم لودفيج الذى سيستقر هنا عندما نكون قد رحلنا ؟ هكذا سألت لور مزيد من الغضب والشجن في صوتها حتى ان ماما لم تستطيع ان تجيب .

تحول نظرتها " أنه هو ! هو الذى فعل كل شىء ! هكذا قالت لور كنت اريد تماما ان تصمت هى شاحبة وترتجف صوتها يرتجف ايضا " أنى اكرهه " اسكت " قالت ماما انت لاتعرف ماتقول " لكن لور لاتريد أن تدعها تفلت لاول مرة تعاند كما لو كانت تدافع عن كل هذا ماتحبة وهذا المنزل المدمر وهذه الحديقة والاشجار الساقبة ومادينا وما وراء ذلك حتى الجبال المظلمة والسماء والريح الذى يحمل ضجيج البحر " لماذا يريد ان نرحل هل لكى يأخذ منزلنا ؟ ماما تجلس على الاريكة في ظل الشرفة المفككة كما فيما مضى عندما كانت تستعد لقراءة الكتاب المقدس او لكى تبدأ الاملاء لكن اليوم ينقضى وقت طويل في يوم واحد ونعلم ان لاشىء من ذلك لن يكون ممكنا ولهذا صرخت لور وارتعش صوتها وامتلآت عيناها بالدموع لانها تريد ان تقول كم هى تتألم " لماذا جعل العالم كله ضدنا

عندما لم يكن لديه غير كلمة واحدة يقولها هو ذلك الثرى ! لماذا يريد ان نرحل هل لكى يأخذ منزلنا لكى يأخذ حديقتنا ويضع القصب في كل مكان ؟ " أسكتى أسكتى ! "

هكذا صاحت ماما وجهها ملىء بالغضب والضيق لور لم تعد تصرخ .تقف امامنا ممتلئة بالخجل عيناها تلمعان بالدموع وفجأة استدارت وقفزت في حديق الظل وهربت وهى تجرى اسمع الاغصان التى تتكسر في طريقها ثم صمت الليل الذى يحل اعدو خلفها "لور ! لور عودى ! " ابحث عنها دون توقف ودون العثور عليها ثم افكر ولا اعلم اين هى كما لو كنت اراها عبر الادغال انها المرة الاخيرة انها في مخبأنا في الناحية الاخرى من حقل النخيل المدمر على الفرع الرئيسى لشجرة التمر هندى فوق الوادى تنصت الى ضوضاء الماء الذى يتدفق في الوادى الضوء الرمادى وقد بدأ الليل توجد بعض العصافير العائدة وحشرات تصر.

لور لم تصعد على الفرع انها تجلس على حجر ضخم بالقرب من شجرة التمر هندى ثوبها الازرق الناصع ملطخ بالطين حافية القدمين .

عندما وصلت لم تتحرك لاتبكى وجهها اكتسى بالتعبير العنيد الذى احبه اعتقد انها سعيدة بأنى جئت اجلس بجانبها احيطها بذراعى نتحدث لانتحدث عن العم لودوفيك ولا عن رحيلنا الوشيك لاشىء من كل ذلك نتحدث عن شىء اخر عن دونيس كما لو كان سيعود وهو يحمل كما في الماضى اشياء غريبة بيضه سلحفاه ريشة من رأس شرطى بذرة او اشياء من البحر قواقع حصى عنبر نتحدث ايضا عن نادا ليلى وينبغى ان نتحدث عنها كثيرا لان الاعصار دمر مجموعتنا من الصحف وطيرها حتى اعلى الجبال ربما عندما جاء الليل بالفعل تسلقنا كما في الماضى طول الجذع المائل وظللنا للحظة معلقين دون ان نرى السيقان والاذرع المتدلية في الفراغ .

هذه الليلة طويلة مثل الليالى التى تسبق الرحلات الكبرى وصحيح انها الرحلة الاولى التى سنقوم بها ونحن نترك وادى بوكان ترقد فوق الارضية في اعطيتنا وننظر الى ضوء المصباح الصغير الذى يخنق في نهاية الممر دون نوم اذا استغرقنا في النوم فللحظة فقط في صمت الليل نسمع حفيف ثوب ماما الابيض الطويل وهى تسير في المكتب الخالى نسمعها تتنفس وعندما تعود للجلوس في المقعد الوثير بالقرب من النافذة نستطيع ان ننام .

عند الفجر عاد ابى احضر معه عربة بحصان ورجل هندى من بور لوسى لانغرفة رجل ضخم ونحيف يشبه بحارا في العربة ابى والرجل الهندى يحملان الاثاث الذى دمرة الاعصار بعض الكراس ومقاعد وطاولات ودولاب كان في حجرة ماما وسريرها النحاسى ومقعدها الوثير ثم الصندوق الذى يحتوى على اوراق الكنز وملابس بالنسبة لنا هى ليست حقا مغادرة بما اننا لانملك شيئا نحملة كل كتبنا وكل بعبنا اختفت في العاصفة وحزم

الصحف لم تعد موجودة ليس لدينا ملابس اخرى غير التى نرتديها والتى لطخت ومزقت بفعل التشرد لفترة طويلة في الادغال هكذا افضل ماذا يمكننا ان نحملة ؟ مانحتاجة هى الحديقة بأشجارها الجميلة وجدرانه منزلنا وسقفة بلون السماء وكوخ كابتن كوك الصغير وتلال شجرة التمر هندى والنجم والجبال ووادى مانانافا المظلم حيث يعيش القس ذو الذيل نظل واقفين في الشمس بينما يحمل ابى اخر الاشياء على حافة العربة .

اقل قليلا من ساعة زمن ودون ان نكون قد اكلنا رحلنا ابى يجلس في المقدمة بجانب الحوذى ماما ولو روانا على القماش وسط الكراسى التى تتخبط وصناديق تصطدم باجزاء ناجية من الغسالة لانبحث حتى عن رؤية المشهد الذى يبتعد من خلال فتحات القماش هكذا رحلنا في ذلك اليوم الاربعاء ٣١ اغسطس وهكذا تركنا عالمنا فلم نكن قد عرفنا غيرة لقد فقنا كل ذلك منزل بوكان الكبير حيث ولدنا الشرفة حيث كانت ماما تقرأ لنا الكتاب المقدس وقصة يعقوب والملاك وموسى المنقذ من الماء وهذه الحديقة الكثيفة مثل جنه عدن من اشجار الادارة واشجار الجوافة واشجار المانجو ووادى اشجار التمر هندى المائلة وشجرة شالتا الكبيرة شجرة الخير والشر وممر النجوم الذى يؤدى الي بقعة السماء حيث مزيد من الاضواء نرحل نترك ذلك ونعلم ان لاشيء من ذلك على الاطلاق له وجود ابدا لانه مثل الموت رحلة بلا عودة

***

حى الغابة

بدأت العيش في شركة القرصان غير المعروف " لوبريفايتر " كما كان يسميه ابى كل هذه السنوات فكرت فيه حلمت به كان يشاطر حياتى وعزلتى في الظلام البارد والممطر بجهه الغابة " حى الغابة " ثم في كليهكوربيب الملكية معه كنت اعيش حقا كان هو " لوبريفانير " حقا هذا الرجل بلا وجه وبدون اسم كان قد اجتاز البحار واستولى مع طاقمة من القراصنة على السفن البرتغالية والانجليزية والهولندية ثم اختفى يوما دون ان يترك اى اثر سوى هذه الاوراق القديمة وهذه الخريطة لا اسم لها وشفرة مكتوبة بالعلامات المسمارية .

الحياة في حى الغابة بعيدا عن البحر لم يكن لها وجود منذ طردنا من بوكان لم نعد مطلقا الى شاطىء البحر معظم زملائى بالكلية في ايام العطلات يستقلون القطار كأسرة واحدة ويذهبون لقضاء بضعة ايام في المعسكرات بناحية فليك اون فلاك او في الناحية الاخرى من الجزيرة في اتجاه ماهيبورج او حتى مسحوق الذهب كانوا يذهبون احيانا الى جزيرة الغزلان وكانوا يحكون على الفور وطويلا عن رحلتهم وهى عيد تحت ظلال النخيل وعن وجبات الغذاء والوجبات الخفيفة حيث كانت تجيء الكثيرات من الفتيات الصغيرات في

ثيابهن الزاهية والظلات اما نحن فكنا فقراء لم تكن نذهب ابدا الى جانب ذلك ماما لم تكن تريد منذ يوم الاعصار كرهت البحر والحر والحمى في حى الغابة شفيت من ذلك حتى اذا كانت قد سبغت حالة من الكسل والتخلى لور كانت تجلس بالقرب منها طول الوقت دون ان ترى احدا ايا كان في البداية كانت قد ذهبت الى المدرسةمثلى لانها قالت انها كانت تريد ان تتعلم العمل لكى لا تكون في حاجة الى الزواج لكن بسبب ماما اضطرت الى التخلى عن هذا ماما قالت انها في حاجة اليها في المنزل كنا فقراء للغاية فمن يساعدها في الاعمال المنزلية ؟ يجب مصاحبة ماما الى السوق واعداد وجبات الطعام والتنظيف لور لم تقل شيئا تخلت عن الذهاب الى المدرسة لكنها اصبحت مكتئبة صامته ممتعضة ومع هذا لاتشرق الا عندما اعود من الكلية لكى امضى في المنزل ليلة السبت ويوم الاحد احيانا كانت تجىء للقائى السبت على الطريق الملكى كنت اتعرف عليها عن بعد خيالها الطويل والرفيع وهى مشدودة في ثوبها الازرق لم تكن تضع قبعة وكانت تضع شعرها الاسود في جديلة طويلة مطوية ومعقودة في ظهرها عندما كانت تمطر مطرا خفيفا كانت تأتى بشال كبير حول رأسها وكتفيها كما لو انها امرأة هندية .

من بعيد جدا كانت تلمحنى وكانت تصيح وهى تجرى نحوى " على ! على! ..." كانت تحتضننى وكانت تبدأ في الحديث وهى تحكى كما من الاشياء بلا اهمية كانت تحتفظ بها طوال الاسبوع صديقاتها الوحيدات كن هنديات نساء اكثر فقرا منها يعيشن على تلال الغابة وكانت قد احضرت بعض الطعام والملابس المستعلمة وكانت تتجاذب معهن اطراف الحديث لفترات طويلة ربما لهذا السبب انتهت الى التشبة بهن قليلا بخيالها الرفيع وشعرها الطويل الاسود وشالها الكبير .

بالنسبة الى كنت استمع اليها بالكاد لانه في هذا الوقت لم تكن لدى افكار اخرى الا للبحر و"لوبريفانير " رحلاته مطارداته في انتوبخيل و" دييجو سوياريز " و " مونومونايا " " إرسالياته السريعة مثل الريح حتى " كارنايتك " في الهند لكى يقطع الطريق على السفن العملاقة والثقيلة للشركات الهولندية والانجليزية والفرنسية قرأت اذن الكتب التى تحدثت عن القراصنة واسماءهم ومفاخرهم التى وجدت صدى في مخيلتى إفيرى الملقب " بالملاك الصغير " الذى كان قد سرق واسر ابنه الماغولى الاكبر ومارتيل وتيتس والميجور سيتدبونيه الذى اصبح قرصانا باضطراب في عقله والقبطان انجلنر وجون راكهام وروبرتس وكنيدى انستيس وتيلور وديفيس والشهيد اوليفييه الرهيب الملقب "بلابوز " الذى بمساعدة تيلور استولى على نائب ملك جووا وعلى سفينة كانت تحوى الغنيمة الشهيرة من الماس الوارد من كنز جولكوند لكن من احببته فوق الجميع كان ميسون القرصان الفيلسوف الذى بمساعدة الراهب المخلوع كارا كيولى كان قد اسس في دييجو سواريز جمهورة الحرية حيث كل الناس يجب ان يعيشوا احرارا ومتساويين بصرف النظر عن اصولهم او عرقهم .

لم اكن اتحدث قليلا عن هذا الا مع لور لانها كانت تقول انها كانت خرافات مثل تلك التى دمرت عائلتنا لكنى كنت اقسم احيانا حلمى بالبحر والقرصان المجهول مع ابى وكنت استطيع النظر طويلا في الوثائق التى تتعلق بالكنز والتى كان يحتفظ بها في خزانة مغضاة برصاص تحت الطاولة التى كان يستخدمها كمكتب كل مرة كنت فيها في فورست سايد مساء منغلقا في تلك الغرفة الطويلة المتواضعة والباردة في ضوءشمعة كنت امعن النظر في الرسائل والخرائط والوثائق التى كان ابى شرحها والعمليات الحسابية التى اتمها منذ التعليمات التى تركها القرصان . أعدت بعناية نقل الوثائق والخرائط وحملتها معى الى الكلية للحلم .

السنوات مرت هكذا في عزلة ربما تكون ايضا اكبر مماكنا علية في بوكان لان الحياة في برد الكلية ومهاجعها كانت حزينة ومهينة ازدحام الطلاب الاخرين ورائحتهم وعلاقتهم ودعاباتهم البذيئة دائما وذوقهم للكلمات الكريهة وهوسهم بالجنس كل ماكن عرفه حتى الان والذى بدأ عندما طردنا من بوكان .

كان هناك موسم الامطار ليس عنف عواصف شاطىء البحر لكنه مطر خفيف ورتيب يستقر فوق المدينة والتلال لايام واسابيع في اوقات الفراغ وانا ارتجف من البرد كنت اذهب الى مكتبة كافوجى واقرأ كل الكتب التى يمكننى ان اجدها بالفرنسية او الانجليزية رحلات ومغامرات في جزيرتى فرنسوا ليجا المهجورتين اله البحر الشرقى بمانفيللات الرحلات الى مادغشقر والى المغرب والهند الشرقية للابيه بوشون وايضا شارل اللوم وجرونييه واوهييه دى جراند بريه وكنت اتصحف الجرائد بحثا عن صدر واسماء لتغذية حلمى بالبحر .

ليلا في برد المهجع كنت اردد عن ظهر قلب اسماء البحارة الذين عبروا المحيطات وهربوا الى العمارات البحرية سعيا لتحقيق الاحلام والسراب وانعكاس الذهب بعيد المنال افيرى دائما والكابتن مارتيل وتيتس الذى يسمى اللحية السوداء والذى كان يجيب عندما كنا نسألهاين اخفى ذهبة .

" لم يكن هناك غيرة والشيطان الذى هاجمة وان الاخير الحى حمل كل شىء " هكذا قال شارل جونسون في كتابه " تاريخ بيرات اونجلوا " . القبطان ونتر وابنه بالتبنى انجلند هو ويل ديفيز الذى سيلتقى يوما في طريقة بسفينة الانبوب وكل فرد يرفع راية سوداء قرروا اذن التحالف والابحار معا .

القرصان كوشلين هو الذى ساعدهم في الاستيلاء على حصن سيراليون مارى ويد متنكرة في زى رجل وآن بونى زوجة جون راكهام تيو الذى تحالف مع ميسون ودعم ليبرتاليا وكونيليوس وكامدين وجون بلونتان الذى اصبح ملكا لرانتابيه وجون فالمبرج وادوارج

جونر ودانييل دارون وجوليان هاردوين وفرنسوا الاخ وجيوم اوتروف وجون آلين وويليام مارتن وبنجامان ميللى وجيمس باتر وجيوم بلانيتيه وآدم جونسون .

وكل المسافرين الذين عبروا البحر اذن بلا حدود اكتشفوا اراض جديدة دوفوجراى وجوتشيه دى لاجولوتيرى وشارل نيكولا مارييت والكابتن لومييه الذى يعيش ربما وعلى مقربة منه سفينة قرصان لاكاسندرادى تايلور " ثرى من خمسة الى سته ملايين بعد عودته من الصين حيث كان قد نهب هذه الكنوز " هكذا يقول شارل آللوم .

جاكوب دى باكوى هو الذى حضر احتضار تايلور والتقط سره الاخير جرونييه الذى كان اول من اكتشف ارخبيل دى شاجو وسير روبيرت فاركار ودى لونجل الذى صاحب لابيروس الى الاسكا او ايضا هذا الرجل الذى احمل اسمه " وليتبخ " الذى صدق على وضع اليد على جزيرة موريس الذى نفذة جييوم دوفرسن قبطان " القناص " في العشرين من سبتمبر عام ١٧١٥ هذه هى الاسماء التى اسمعها في الليل بعينيين مفتوحتين على اخرها ظلام العنبر احلم ايضا بأسماء السفن اجمل الاسماء في العالم مكتوبة في مؤخر السفينة وهى تحط الاثر الابيض فوق البحر العميق كتابة الي الابد في الذاكرة التى هى البحر والسماء والريح البروجى المظوظ المنتقم المنتصر الذى وجهه الطائرثم جلد رلاند الذى كان قد اسره ودفاع تايلور وعودة سوركوف والمحلق دراجون دى كاموان والطيار الذى حمل بانجريه الى رودريج ولامفيتريت والسنونو الكبير الذى قادة القرصان نفسه قبل ان يهلك على السفينة لافورتون .

لاينرييد ولوتير ولوسافير التى جاء عليها انجليز روولى في سبتمبر ١٨٠٩ حتى لابوانت اوه جاليه لكى يحتلوا جزيرة فرنسا توجد اسماء الجزر ايضا اسماء شهيدة اعرفها عن ظهر قلب كتل بسيطة كانت قد سيطر عليها المستكشفون والقراصنة بحثا عن الماء او بيض العصافير المختبئة في الخلجان وكهوف القراصنة حيث اسسوا مدنهم وقصورهم ودولهم خليج انطونجيل في مدغشقر وجزيرة سانت – مارى وفولبوانت وتانتانج جزر القمر اونجوان ماهيلى مايوت ارخبيل سيشيل وآميرونت وجزيرة الفونس كووتيفى جورج روكبيز الدابرا جزيرة انتقال السيدة العذراء كوزموليدو واستوف سان بيير بروفيدونس جوان دى نوفا مجموعة شاجو جزيرة سان براندون العجيبة حيث لاتستطيع النساء ان تذهب اليها رافاييل تروملان جزيرة الرمل رصيف ساسادى مالها رصيف الناصرة اجاليجا كانت هى الاسماء التى سمعتها في صمت الليل الاسماء البعيدة تماما ومع هذا مألوفة للغاية والان ايضا بينما اكتبها يدق قلبى اسرع ولا اعود اعرف اذا لم اكن قد ذهبت اليها .

*

لحظات الحياة كانت عندما نتلاقى لو روانا بعد اسبوع من الانفصال على طول الطريق الموحل الذى يذهب حتى " حى الغابة " على امتداد السكة الحديد حتى المياه الزرقاء دون الالتفاف الى الناس تحت مظلاتهم كنا نتحدث لكى نتذكر ايام بوكان ومغامراتنا خلال القصب والحديقة والوادى وصوت الريح في الاشجار الساقية كنا نتحدث بسرعة وكل هذا بدا احيانا كحلم ومانانافا " قالت لور لم استطع ان ارد عليها لانى كنت مصابا بألم في بطنى وكنت افكر في الليالى بدون نوم بعينين مفتوحتين في الظلام وانا استمع الى تنفس لور الهادىء تماما اترقب وصول البحر مانانافا الوادى المظلم حيث كان يولد المطر وحيث لم نجرؤ ابدا على الدخول فيه كنت افكر ايضا في ريح البحر الذى كان ينمو ببطء مثل روح الاسطورة والقشتان بالذل الابيض الناصع وكنت اسمع ايضا رجع صدى الوادى وصراخة الاجش مثل صوت حشرجة الموت . مانانافا حيث كانت زوجة العجوز كوك تقول أن احفاد العبيد السود كانوا يعيشون هنا وكانوا قد قتلوا السادة وحرقوا حقول القصب هنا كان سنجور قد هرب وهنا كان ساكالافو قد القى من اعلى هاوية لكى يهرب من البيض الذين كانوا يطاردونه وكانت تقول كذلك أن عندما هبت العاصفة سمع انين ستصاعد من مانانافا وشكوى ابدية .

لور وأنا كنا نمشى ونحن نتذكر نمسك أيدينا مثل العشاق كنت اردد الوعد الذى وعدت به لور منذ فترة طويلة سنذهب الى مانانافا .

كيف سيستطيع الاخرون أن يصبحوا اصدقاء نا وجيراننا ؟ في فورست سايد لا احد يعرف مانانافا .

عشنا هذه السنوات في فقر لدرجة أننا تعلمنا أن نصبح غير مبالين. فقراء جدا لشراء ملابس جديدة لم نخالط احد لم نذهب الى اى مطعم الى اى حقل لور وأنا نلنا شيئا من المتعة من هذه الوحدة ابى لكى يجعلنا نعيش حصل على عمل محاسبى في احد مكاتب العم لودوفيك برومبار ستريت بيور لوى ولور كانت تسخط على الرجل الذى ساعد اكثر من غيرة على رحيلنا من بوكان وكان هو الذى امدنا بالغذاء كصدقة .

لكنه كان فقرا أقل من العذاب ومن المنفى .أتذكر هذه الامسيات المظلمة في البيت الخشبى في "حى الغابة " وبرد الليالى الخجول وصوت الماء المتساقط على صفيح السطح .الآن بالنسبة لنا البحر لم يكن موجودا على الاطلاق بالكاد نلمحة احيانا عندما كنا نركب القطار لمرافقة أبانا حتى بور لوى أو عندما كنا نذهب مع ماما ناحية " حقل مارسى " على البعد كانت منطقة تلمع باستمرار في الشمس بين اسقف الاحواض وقمم الاشجار لكننا لم نكن نقترب منها .لور وأنا كنا نبعد نظرنا مفضلين حرق عيوننا على اجنحة جبل " ينيو الجرداء " .

في هذا الوقت ماما كانت تتحدث عن اوروبا وعن فرنسا رغم عدم وجود أى عائلة لها هناك كانت تتحدث عن باريس كملاذ آمن سوف نركب الباخرة التابعة لستيم نافيجيش البريطانية الهندية الى بلد المنشأ كلكتا وسنذهب حتى مارسيليا بداية سنعبر المحيط حتى السويس وسنحصى المدن التى سيمكننا رؤيتها مونباز عدن الاسكندرية اثينا جنوة ثم نركب القطار حتى باريس حيث يعيش احد اعمامنا شقيق والدنا الذى لم يكتب قط ولانعرفة الا باسم العم بيير موسيقى اعزب له كما يقول ابى شخصية سيئة للغاية لكنه سخى جدا هو الذى كان يرسل نقودا لدراستنا وبعد وفاه ابى جاء لمساعدة ماما .لهذا قررت ماما اننا سنذهب للاقامة عندة على الاقل في الاوقات الاولى قبل ايجاد مكان للاقامة حمى هذه الرحلة اصابت حتى ابى الذى كان يحلم بصوت عال بمشروعاته بالنسبة لى لايمكننى أن انسى القرصان المجهول ولا ذهبة السرى هل هناك في باريس كان يوجد مكان لقرصان ؟ إذن سنبقى في هذه المدينة الغامضة حيث يوجد كم من الاشياء الجميلة وكثير من المخاطر ايضا .لور كانت قد قرأت في حلقة من مسلسل جريدة عن " خفايا باريس " رواية لاتنتهى تتكلم عن قطاع طرق وخاطفى الاطفال والمجرمين لكن هذه المخاطر كانت بالنسبة لها مظلله بنقوش الصحف التى كانت تعرض " حقل مارسى" الحقيقى والمسلة والميادين الكبيرة والموضة طوال امسيات السبت الطويلة تحدثنا عن الرحلة ونحن نستمع الى صوت المطر يقرع على صفيح السطح وقرقعة عربات لابسو الخيش تجرى في وحل الطريق لور كانت تتحدث عن اماكن سوف نذهب لزيارتها عن السيرك بصفة خاصة لانها كانت قد رأت في جرائد ابى الرسومات التى تعرض خيمة سيرك ضخمة تطوف تحتها نمور واسود وأفيال تركبها فتيات ترتدى ثيابا مزركشة ماما تعيدنا الى اشياء اكثر جدية سوف ندرس انا الحقوق ولور الموسيقى وسنذهب الى المتاحف وربما نزور القصور الضخمة بقينا صامتين للحظات طويلة في طريق الخيال .

لكن الافضل للور ولى كان عندما كنا نتحدث عن اليوم – البعيد بطبيعة الحال – حيث سنعود الى بيتنا في موريشيوس مثل هؤلاء المغامرين المسنون الذين يبحثون عن العودة الى ارض طفولتهم سنصل يوما ربما بالباخرة ذاتها الذى حملتنا وسنسير في شوراع المدينة دون التعرف على شيء سنذهب الى الفندق في مكان ما في بور لوى على وارف ربما في الشرق الجديد ا والى فندق الحديقة في " شارع الكوميديا " او نأخذ ايضا القطار في الدرجة الاولى ونذهب الى فندق العائلة في كوروبيب ولن يخمن احد من نحن في السجل سأكتب اسمينا السيد والانسة ليتونج .

ثم نذهب بالحصان سائحان عبر حقول القصب نحو الغرب حتى كانتون وماوراءها ونهبط الطريق الذى يمضى بين قمم الضروع الثلاثة ثم على طول طريق ماجنتا وسيكون المساء قد حل عندما نصل الى بوكان وهنا لاشيء يكون قد تغير سيكون هناك دائما منزلنا مائل قليلا منذ مرور الاعصار بسقفة ذو اللون السماوى والزواحف التى غزت الشرفة . الحديقة

صارت اكثر توحشا ولاتزال بالقرب من الوادى دائما شجرة شالتا الضخمة شجرة الخير والشر حيث تأتى العصافير وتلتقى قبل الليل سنذهب ايضا حتى حدود الغابة امام مدخل مانانافا هنا حيث يبدأ الليل دائما وستكون في السماء القشتان بالذيل الابيض كما الرغوة تستدير ببطء فوقنا وهما تطلقان صيحاتها الغريبة من الخشخشات ثم تختفيان في الظلام .

وسيكون البحر ورائحة البحر التى يحملها الريح وصوت البحر وسنستمع ونحن نرتعش صوته المنسى الذى سيقول لنا : لاترحلا ابدا لاترحلا ابدا .

لكن السفر الى اوربا لن يكون ابدا لانه في ذات مساء من شهر نوفمبر بالضبط قبل مطلع القرن الجديد مات والدنا بعد ان قضت عليه النوبه .جاء الخبر في اللليل حملها ساعى بريد هندى وجاء من يوقظنى في عنبر الكلية ليصحبنى الى مكتب المدير المضاء بشكل غير طبيعى في هذه الساعة اخبرونى بما حدث مع المراعاة لكنى لم اشعر الا بفراغ كبير في الساعة الاولى إقتادنى في سيارة الى فورست سايد وعندما وصلت وبدلا من الحشد الذى كنت اخشاه لم ار غير لور وخالتنا آديلابيد وماما شاحبة وساجدة على كرسى امام السرير حيث يسجى والدى بكامل ملابسة هذا الموت المفاجىء حدث بعد سقوط المنزل الذى ولدنا فيه وكان بالنسبة لى كما بالنسبة للور شىء غير مفهوم وقدر بدا لنا عقاب من السماء ماما لم تشف تماما ابدا .

النتيجة الاولى لفقدان والدنا ادت ايضا الى حرمان كبير جدا وخاصة لماما لم يعد الامر يتعلق بأوروبا في الوقت الحالى كنا سجناء جزيرتنا دون امل في الخروج منها بدأت اكرة هذه المدينة الباردة والممطرة وهذه الطرق المزدحمة بالبؤساء وهذه العربات التى تنقل كميات القصب الى قطار السكر وحتى ماكنت احبه كثيرا يفيما مضى هذه المساحات الشاسعة من المزارع حيث كانت الرياح تدفع موجات هل سأكون مجبرا على العمل يوما مثل مرتدو الخيش وتحميل حزم القصب على العربات التى تجرها الثيران بخيرها في فوهه الطاحونة كل يوم من حياتى دون امل وبلا حرية لم يكن ذلك حتى لكن ربما يكون اسوأ ايضا منحتى في الكلية انتهت اضطررت للالتحاق بعمل وكان المكان الذى شغله والدى في المكاتب الرمادية شركة التأمينات والتصدير التى كانت في قبضة العم لودوفيك القوية .

شعرت عندئذ بكسر الروابط التى تربطنى بلور وبماما خاصة الشعور الذى بددة الى الابد بوكان ومانانافا .

في شارع السور كان عالما اخر كنت اصل كل صباح بالقطار مع حشد من عابرى الجداول ومن التجار الصينيين والهنود الذين يجيئون لانجاز اعمالهم من عربات الدرجة الاولى يخرج الرجال المهمين رجال الاعمال والمحامون يرتدون السترات

السوداء ويمسكون بعصا وقبعة كانت هذه الموجة تحملنى حتى باب w.w.westا
مكاتب حيث ينتظرنى في الحجرة السغيرة الساخنة بنورها الخافت السجلات ورزم
الفواتير ابقى فيها حتى المساء عند الخامسة مع التوقف نصف ساعة عند الظهر لتناول
الغذاء زملائى كانوا يذهبون معا للطعام عند احد الصينيين في الشارع الملكى اما انا فبدافع
اقتصادى وايضا لطعم الوحدة اقنع بقضم بعض القرص بفلفل امام المحل الصينى واحيانا
بشىء من الترف اخذ برتقاله اقسمها الى اربعة اجزاء واجلس على جدار في ظل شجرة
اتطلع الى الفلاحات الهنديات العائدات من السوق .

كانت حياة بلا صراع بدون مفاجأت كان يخيل الى دائما ان كل هذا لم يكن حقيقيا وانه كان
حلما احلم ب هوانا يقظ كل هذا القطار الارقام على السجلات رائحة التراب في المكاتب
اصوات الموظفين في الذين يتحدثون بالانجليزية وزوجاتهم الهنديات العائدات ببطء من
السوق يحملن فوق رؤوسهم سلالهن الفارغات على امتداد الشوارع الشاسعة تحت ضوء
الشمس .

لكن كانت هناك القوارب من اجلها كنت اذهب الى الميناء كلما تيسر لى ذلك عندما كانت
تتاح لى ساعة واحدة قبل افتتاح مكاتب او بعد الخامسة عندما يكون شارع السد خاليا في
ايام العطلات عندما يذهب الشباب للنزهه ممسكين بأذرع خطيباتهم على طول ممرات حقل
مارسى كنت افضل التسكع على الارصفة وسط حبال المراكب وشركات الصيد لكى استمع
لحديث الصيادين ولكى اتطلع الى القوارب التى تتمايل فوق الماء المتدفق وأتابع بالنظر
شباك معدات السفن بالفعل كنت احلم بالذهاب لكن كان علىان اشبع من قراءة اسماء
القوارب على المؤخرات احيانا كانت قوارب صيد بسيطة تحمل فقط رسما بدائيا لطاووس
وديك او دلفين كنت انظر خلسة الى وجوه البحارة والهنود المسنين والسود والقمريين
المعممين جالسين في ظل الاشجار الضخمة يدخنون سجائرهم دون ان يتحركوا تقريبا .

اتذكر ايضا اليوم اسماء قرأتها على مؤخرات السفن انها مسجلة عندى مثل كلمات اغنية :
جلاديس السلام نجمة البحر الهندى الصداقة روزالجميلة كومودا روبانيكا تان الاحمر
روزاليا مسحوق الذهب حسناء الجنوب كانت بالنسبة لى اجمل اسماء الدنيا لانها كانت
عن البحر وعن امواج عرض البحر الطويلة وعن الشعاب المرجانية وعن الجزر البعيدة
وعن العواصف ذاتها عندما كنت اقرأها اكون بعيدا عن الارض بعيدا عن شوارع المدينة
بعيدا بصفة خاصة عن ظل تراب المكاتب والسجلات المغطاه بالارقام .

ذات يوم لور جاءت معى على الارصفة مشينا طويلا على امتداد القوارب تحت أعين
البحارة اللامبالية والجالسين في ظل الاشجار هى التى حدثتنى اولا عن حلمى السرى وهى
تسألنى " " هل ستغادر قريبا على متن قارب ؟ " ضحكت قليلا مستغربا سؤالها كما لو كان
مزحة لكنها نظرت الى دون ان تضحك وعيناها الجميلتان المظلمتان مليئتين بالحزن "

نعم نعم اعتقد انه بامكانك الرحيل على اى من هذه القوارب تذهب الى اى مكان كما هو الحال مع دونيس على الزورق " قلما لم اجب بشىء قالت بشىء منن المرح فجأة :" هل تعلم احب كثيرا ذلك انا ان اذهب الى اى مكان على قارب الى الهند الى الصين الى استراليا الى اى مكان لكن ليس ابدا الى فرنسا " توقفت عن الكلام وواصلنا النظر الى القوارب الراسية على طول الرصيف وانا كنت سعيدا كنت اعلم لماذا كنت سعيدا في كل مرة يرفع قارب اشرعته ويبتعد نحو الاتساع .

هذه هى السنة التى تعرفت فيها بالكابتن برادميروبزيتا اريد الان ان اتذكر تفاصيل ذلك اليوم لكى اعيش من جديد لانه كان يوما من اهم ايام حياتى .

كان يوم احد صباحا منذ الفجر كنت قد خرجت من المنزل القديم " حى الغابة " وركبت قطار بورلوى تجولت كما هى عادتى على امتداد الارصفة وسط الصيادين العائدين توا من البحر مع سلالهم المليئة بالاسماك القوارب كانت لاتزال مبلله من البحر المرتفع مجهدة اشرعتها معلقة بطول السوارى لكى تجف في الشمس كنت احب ان اكون هنا تماما عند العودة من الصيد اسمع حركة هياكل السفن واشم رائحة البحر التى لاتزال فوقها ثم بين قوارب الصيد مراكب الصيد وحشد من القوارب الشراعية رأيتها : كان قربا قديما بالفعل مع خيال دقيق وقاع لسفينتين بصاريين وساريين يميلان بخفة الى الخلف وشراعين جميلين يخفقان في مهب الريح على هيكل سفينة طويلة سوداء في اتجاه المقدمة قرأت اسمها الغريب مكتوبا بحروف بيضاء : زيتا .

وسط قوارب الصيد الاخرى بد وكأنه دم نقى جاهز للسباق بأشرعته الكبيرة شديدة البياض ومعداته التى اطلقت الشراع الثانى الى الصارى بقيت طويلا بلا حراك وانا معجب به من اين جاء ؟ هل سيعاود الذهاب الى رحلة كنت اتخيلها بلا عودة ؟ بحار كان يقف على الجسر اسود من جزر القمر تجرأت ان اسأله من اين جاء واجابنى " آجاليجا " عندما سألتة لمن كانت السفينة قال لى اسما اسأت فهمة " القبطان ذراع البحر " ربما يكون هذا الاسم هو الذى إستدعى زمن القراصنة والذى ايقظ بداية خيبالى وجذبنى الى هذا القارب من كان " ذراع البحر " هذا؟ كيف يمكن رؤيته ؟ أنها الاسءلة التى وددت أن اسألها للبحار لكن الرجل ادار لى ظهرة وجلس على مقعدة في مؤخرة القارب في ظل الاشرعة .

مرات كثيرة عدت ذلك اليوم لكى اشاهد المركب الشراعى على الرصيف مهموما بفكرة انه يمكنه ان يذهب في مد المساء البحار كان لايزال يجلس على المقعد في ظل الشراع الذى كان يرفرف في مهب الريح حوالى الثالثة بعد الظهر بطأ التيار يرتفع والبحار فر الشراع على عارضة الصارى ثم اغلق بعناية فتحات السطح بأقفال ونزل الى الرصيف عندما رآنى من جديد امام القارب توقف وقال لى " الكابتن ذراع البحر سيأتى الان " .

بعد الظهر بدالى طويلا للغابة في انتظارة مكثت طويلا جالسا تحت الاشجار الادارة لاتجنب الشمس الحارقة تدريجيا مع انقضاء اليوم انشطة رجال البحر تباطأت وسرعان ما اختفى الناس فيما عدا بعض المتسولين الذين ينامون في ظل الاشجار او يلتقطوا بقايا السوق مع المد كانت الريح تصفر من البحر ورأيت على البعد بين القطبين توهج الافق .

عند الغسق عدت امام زيتا كانت تتحرك تقريبا عند حافة حبالها في الموجه على الجسر بمثابة طريق لوح بسيط كان يصر عند استمرار الحركة .

في ضوء المساء الذهبى في الميناء المهمل حيث مرت وحدها بعض النوارس مع ضجييج الريح الخفيف الذى يصفر في المعدات وربما ايضا بسبب هذا الانتظار الطويل في الشمس كما فيما مضى عندما كنت اركض في الحقول كانت السفينة قد اكتسبت شيئا ما من السحر مع سارياتها العالية المائلة وعارضات الصارى اسيرة شبكة من الحبال وسهم الصارى الحاد مثل الحيزوم على الجسر اللامع اعطى المقعد الفارغ الموجود امام عجلة القصب انطباعا بالغربة اكبر ايضا لم يكن مقعد مركب كان بالاحرى مقعد مكتب من الخشب الماضر مثل المقاعد التى كنت اراها كل يوم في وكان هنا في مؤخرة السفينة الباهتة يفعل الرذاذ تحمل ماركات السفر عبر المحيط !

الجاذبية كانت قويه للغاية يقفزة عبر اللوح الذى كان بمثابة معبر امام العجلة الخشبية الكبيرة ذات القضيب كنا مأخوذا تماما بسحر السفينه في وحدة الميناء وضوء الشمس الغاربة الذهبى الدرجة انى لم اسمع وصول القبطان اقترب منى ونظر الى بفضول دون غضب وقال لى بشكل غريب ساخر وجاد معا :

" حسنا ياسيدى ؟ متى نرحل ؟"

اتذكر جيدا الطريقة التى القى على بها هذا السؤال والاحمرار الذى غطى وجهى لاننى لم اكن اعرف بماذا اجيبة .ماذا اقول لكى اعتذر ؟ اتذكر بالتحديد الانطباع الذى نقله لى القبطان إذن جسده العريض وثيابة التى يستعملها كسفينة مركشة بعلامات لاتمحى كما الندب ووجهه الانجليزى ببشرة شديدة الحمرة قابس جاد تكذبه عينان سوداوان تلمعان فضلا عن وميض السخرية الصبيانية في نظرته هو الذى تحدث الى اولا وعلمت ان " ذراع البحر " كان في الحقيقة القبطان برادمير ضابط في البحرية الملكية الذى كان قد وصل الى نهاية مغامراته الفريدة .

اعتقد انى عرفته على الفور : سأرحل على " زيتا " ستكون هى سفينيتى " الرجو " التى ستقودنى عبر البحر حتى المكان الذى حلمت به في رودريج لبحثى عن كنز بلا نهاية .

*   *   *

نحو رودريج ١٩١٠

افتح عينى وأرى البحر ليس بحر الزمرد الذى رأيته فيما مضى في البحيرات ولا الماء الاسود امام مصب نهر تاماران انه البحر كما لم اره ابدا من قبل حر متوحش بزرقه تصيب بالدوار البحر الذى يحمل هيكل السفينة ببطء موجه بعد موحه ملون بالرغوة بجتاز الشرر .

الوقت متأخر الشمس اصبحت عالية في السماء نمت بعمق حتى انى لم اسمع السفينة تبحر وتعبر الممر عندما حدث المد والجزر . مساء امس مشيت على الارصفة في وقت متأخر من الليل وانا اشم رائحة النفط والزعفران ورائحة الفاكهه المتعفنة التى تعدم في موقع السوق . كنت اسمع اصوات رجال البحر في المراكب وصيحات لاعبى النرد وكنت اشم ايضا رائحة " العرقى " والتبغ صعدت على متن السفينة ونمت على الجسر للهروب من العنبر الخانق وتراب اكياس الارز نظرت الى السماء من خلال حبال الصارى ورأسى يميل على صدرى صارعت النوم حتى منتصف الليل وانا انظر الى سماء بلا نجوم واستمع الى الاصوات وصرير العربة على الرصيف وعلى البعد موسيقى الجيتار لم اكن ارغب في التفكير في احد لور وحدها التى علمت برحيلى لكنها لم تقل شيئا لماما لم تزرف دمعة واحدة على العكس كانت عيناها تلمعان بضوء غير عادى سوف نلتقى قريبا هكذا قلت هناك في رودريج سيكننا ان نبدأ حياة جديدة سيكون لدينا منزل كبير وخيول واشجار فهل يمكنها ان تصدقنى ؟

لم تشأ ان اطمئن عليها ترحل تذهب بعيدا ربما الى الابد يجب ان تذهب الى منتهى ما تبحث عنه حتى اخر العالم هذا ما اردت ان تقوله لى عندما كانت تنظر الى لكنى لم استطع ان افهمها الان اكتب اليها لاقول لها ماكان في تلك الليله نائم على جسر زيتا وسط الحبال اسمع صوت رجال البحر والجيتار الذى كان يعزف دون توقف الاغنية الخلاسية ذاتها الصوت في لحظة اصبح قويا للغاية ربما كان الريح قد ارتفع او كان المغنى قد استدار نحوى في ظل الميناء

طير طير تهيأ ولاتتجمد

هاهو الطائر مستعد للطير

اذا ربحت خطأ فأنت الطائر

سأربح النقود من اجل سفرى في الذهاب وفي الاياب !

غفوت وانا استمع الى كلمات الاغنية .

وعندما جاء المد والجزر رفعت زويتا اشرعتها في صمت وانزلقت فوق الماس الاسود نحو حصون الممر وانا لم اكن اعرف شيئا نمت على الجسر بجوار القبطان برادمير ورأسى يميل على صدرى .

عندما استيقظت ونظرت حولى مبهورا بالشمس لم يعد للارض وجود ذهبت الى الخلف تماما وملت على الدرابزين انظر الى البحر بقدر ما استطيع والى الامواج الطويلة التى تتدفق تحت الهيكل والى المجرة كأنها طريق يتلألأ منذ وقت طويل وانا انتظر هذه اللحظة قلبى يدق بعنف وعيناى مليئتان بالدموع .

زيتا تنحنى ببطء تحت مرور الامواج ثم تعتدل بعيدا عن مدى رؤيتى لا يوجد غير هذا البحر وديان عميقة بين الامواج الرغوة على الفم اسمع صوت الماء الذى يعانق هيكل السفينة وتمزق شفرة بالقوس .الريح بخاصة الذى يملأ الاشرعة ويجعل العتاد يصرخ كنت اعرف جيدا هذا الضجيج انه صوت الريح في فروع الاشجار الضخمة في بولكان ضجيج البحر الذى يرتفع والذى ينتشر حتى حقول القصب لكنها المرة الاولى التى اسمعه فيها على هذا النحو وحده بدون عوائق حر من ناحية الى اخرى من العالم .

الاشرعة جميلة مليئة بالرح زيتا تبحر على القرب والقماش الابيض يتموج وهو يقرقع مناعلى الى اسفل في المقدمة توجد ثلاثة اذرع رفيعة مثل جناحى عصفور البحر هى التى تقود السفينة نحو الافق .

احيانا بعد عاصفة من رياح الغرب قماش الاشرعة يشد ثانية في حاشية شديدة تطن مثل طلقة مدفع كل ضجيج البرح يدوخنى والضوء يعمينى توجد زرقة البحر بشكل خاص هذه الزرقة العميقة والمظلمة القوية الميليئة بالشرر الريح يصنع دوامة ويسكرنى واشعر بطعم الرذاذ المالح عندما يغطى الموج المد والجزر .

كل الرجال على الجسر انهم بحارة هنود من جزر القمر لايوجد ركاب اخرون على الميناء جميعا نشعر بالنشوة ذاتها بأول يوم في البحر حتى برادمير من المؤكد انه يشعر بذلك يقف على الجسر بالقرب من قائد الدفه ساقاه متباعدان لمقاومة الترنح لعدة ساعات لم يتحرك لم يغادر البحر بعينيه رغم مابى من رغبة لاجرؤ على طرح اسئلة ينبغى ان انتظر مستحيل عمل شىء غير النظر الى البحر وسماع ضجيج الرياح للاشىء في العالم لا اريد ان انزل الى العنبر الشمس تحرق الجسر وتحرق ماء البحر المعتم . اذهب لاجلس بعيدا فوق الجسر عند حافة ذراع الشراع الذى يهتز الامواج ترفعمؤخرة السفينة ثم تتركها تهبط بعمق ان طريق بلا نهاية يتسع نحو الافق البالوراء لم تعد توجد ارض في اى مكان لاتوجد غير المياة العميقة الممتلئة بالضوء والسماء حيث تبدو السحب ساكنة وخفيفة يكسوها الافق بالدخان . اين نذهب ؟ هذا ما اريد ان اسأله لبرادمير امس لم يقل شيئا ظل صامتا كما لو

كان يفكر او كأنه لم يكن يريد ان يقول لى ماهيه الآجاليجا هذا يتوقف على الرياح هكذاقال لى قائد الدفه رجل عجوز لونه كالصلصال عيناه مشرقتان تنظران اليك دون ان تطرفا الرياح جنوبية – جنوبيه شرقيه الان مستمرة دون هيات وسوف تتجه الى الشمال .الشمس عند مؤخرة زيتا ضوؤها يبدو كأنه يملا الاشرعة سكرة بداية اليوم لم تتراجع البحارة السود والهنود ظلوا واقفين على الجسر يالقرب من الصارى الامامى متشبثين بالحبال الان يجلس برادمير على مقعدة خلف قائد الدفه ويستمر في النظر امامه نحو الافق كما لو كان ينتظر حقا شيئا مايظهر لاتوجد غير الامواج تندفع نحونا مثل بهائم منتصبه الرأس عرفها ذو شرر ثم ترتطم بهيكل السفينة وتنزلق تحتها عند عودتى اراها تهرب تميزها بالكاد شفرة الوتد نحو الجانب الاخر من العالم . افكارى تصطدم بداخلى حسب ايقاع الامواج اعتقد انى لم اعد الشخص نفسه ولن اكونا بدا الشخص نفسه اصبح البحر يغرقنى عن ماما ولور وعن حى الغابة وعن كل ماكنته .

*

في اى يوم نحن ؟ يخيل الى انى عشت هنا دائما في مؤخرة زيتا انظر من فوق الدرابزين على امتداد البحر استمع الى تنفسه يخيل الى ان كل ماعشته منذ طردنا من يوكانالى حى الغابة الى الكلية الملكية ثم في مكاتب كل هذا لم يكن غير حلم ويكفى ان افتح عينى على البحر لكى يمحى ذلك .

في ضجيج الامواج والرياح اسمع صوتا يتردد ف اعماقى دون توقف البحر البحر وهذا الصوت يغطى على كل الاكلام الاخر وكل الافكار الريح الذ ى يدفعنا نحو الافق يصنع دوامة احيانا ويجعلها السفينة تتأرجح اسمع طلقتات الاشرعة وصفير المعدات وهذه ايضا كلمات تحملنى وتبعدنى .

الارض التى عشت فيها كل هذا الوقت اين هى الان ؟ اصبحت صغيرة للغاية مثل طوف ضائع بينما زيتا تتقدم تحت ضغط الريح والضوء تنحرف في مكان ما على الجانب الاخر للافق خيط رفع من الطين الضائع في الزرقة الشاسعة .

انا مشغول تماما بالنظر الى البحر والسماء وكل حفرة ضوء بين الامواج وشفاه المجرة التى تبتعد اسمع بمزيد من الاهتمام ضجيج الماء على صدر السفينة وضجيج الريح ويأتى لم الحظ الا افراد الطاقم وهم يأكلون. برادمير هو الذى يجىء نحوى ينظر الى دائما بنظرة السخرية في عينيه الصغيرتين السوداوين .ماذا بعد ياسيدى ؟ دوار البحر هو الذى يقطع شهيتك ؟ " قالها بالانجليزيه .نهضت من فورى لأبين له انى لست مريضا .

" كلا ياسيدى " " اذن هيا لتأكل " انه تقيبا امر .

نزلنا الي العنبر عن طريق السلم في جوف المركب الحرارة خانقة والهواء معبأ بروائح المطبخ والسلع رغم الطاقات المفتوحة يسود الظلام المركب من الداخل ليس الا عنب واحد كبير حيث يشغل الجزء الرئيسى بصناديق وبالات السلع وتشغل الخلفية بالفراش الارضى حيث ينام البحارة تحت السطح في المقدمة الطباخ الصينى مشغول بتوزيع حصص الارز بالكارى الذى طبخة على موقد قديم بالكحول وصب الشاى من غلاية كبيرة من القصدير . برادمير يجلس القرفصاء على الطريقة الهندية ظهرة يميل على عارضة وانا افعل مثله هنا يفي عمق العنبر تتدحرج المركب بشكل مرعب الطباخ يعطينا اطباق مطلية بالمينا مليئة بالارز ورعين من الشاى الساخن .

نحن دون ان نتكلم في الغسق اتبين البحارة الهنود جاثمين هم ايضا وهم يشربون الشاى برادمير يأكل بسرعة وهو يستخدم الملعقة المنبعجة مثل عصا وهو يدفع الارز في فمه الارز زيتى مشبع بصلصة السمك لكن الكارى حامى لدرجة الشعور بالمذاق بالكاد الشاى يحرق شفتى وحلقى لكنه يروى العطش بعد الارز المتبل .

عندما انتهى برادمير وقف ووضع الطبق والكوب على الارض بالقرب من الصينى عند صعود السلم من جديد نحو الجسر اخذ يفتش في جيب سترته واخرج منه سيجارتين غيبتين مصنوعتين من اوراق التبغ التى لاتزال خضراء ملفوفة حول نفسها تناولت احدى السجارتين واشعلتها بولاعة القبطان صعدنا السلم واحد بعد الاخر واصبحنا من جديد فوق الجسر في مهب الريح .

بعد بقائى للحظات في العنبر خطف الضوء بصرى بقوة حتى امتلأت عيناى بالدموع اتحسس تقريبا وانا منحنى تحت ذراع الشراع عدت الى مكانى في المؤخرة وجلست قرب حقيبتى اما برادمير فقد استدار ليجلس في مقعدة المشدود الى الجسر ونظر بعيدا دون ان يتحدث الى قائد الدفه وهو يدخن سيجارته .

رائحة التبغ طيبه ولذيذة لكنها تقززنى وهذا لايروقنى مع زرقه البحر النقية تماما وزرقة السماء وضوضاء الرياح اطفأت السيجارة فوق الجسر لكنى لا اجرؤ على القائها يفيي البحر لايمكننى ان اتقبل هذا التلوث هذا الجسم الغريب يطفو فوق هذه المياه الجميلة المنسابة والحية .

زيتا ليست تلوثا كم عبرت هذا البحر وبحار اخرى ايضا فيما وراء مدغشقر وحتى سيشيل او نحو الجنوب حتى سان بول المحيط نقاها جعلها مثل عصافير البحر الكبيرة التى تحوم في الرياح .

الشمس تهبط ببطء في السماء تضيء الجانب الاخر من الاشرعة الان ارى ظل الاشرعة على البحر الذى يكبر من ساعة لاخرى في اخر الظهيرة فقد الريح انفاسة .

انه نسيم خفيف يكاد يستند على الاشرعة الضخمة تلمس وتدور الامواج وتصيب سطح البحر بقشعريرة وكأنه جسد انسان معظم البحرارة نزلوا الى العنبر يشربون الشاى ويتحدثون .البعض ينام على فراش الارض لكى يستعدون لابحار الليل .

القبطان برادمير ظل في مقعدة خلف قائد الدفه يتحدثان بالكاد يضع كلمات غير واضحة يدخنان سجائر التبغ الاخضر دون ملل بحيث تصل الى الرائحة في بعض الاحيان عندما تكون هناك زوبعة اشعر بعينى تحترقان ربما اكون قد اصبت بالحمى ؟ جلد وجهى ورقبتى وذراعى وظهرى كله يحترق حرارة الشمس اثناء كل هذه الساعات علمت على جسدى طول اليوم حرقت الشمس الاشرعة والجسر والبحر ايضا دون اخذ حذرى اضاء ت بأشعتها قمة الامواج وهى ترسم اقواس قزح في الرذاذ.

الان من البحر يأتى الضوء من اعمق اعماق لونه اسماء صافية بلا لون تقريبا وانظر الى امتداد زرقه البحر وفراغ السماء حتى الدوار .

هذا ماحلمت به دائما يخيل الى ان حياتى توقفت منذ فترة طويلة في مقدمة البارجة التى كانت تنجرف على بحيرة مورن عندما تفحص دونيس العمق بحثا عن سمكة بالخطاف كل هذا الذى كنت اعتقد انه تبدد ونسى الضجيج التطلع من البحر المفتون بهوته كل هذا يدور بداخلى ويعود يفوق زيتا التى تتقدم ببطء تهبط الشمس نحو الافق تضىء قمم الامواج وتفتح وديانا من الظل .

وكما ينخفض الضوء ويتلون بلون الذهب تأخذ تحركات البحر في التباطؤ لم يعد الريح يطلق عواصفة الاشرعة اصبحت فارغة ومغلقة بين عارضات الصوارى فجأة اصبحت الحرارة شديدة ورطبة كل الرجال فوق الجسر في مقدمة السفينة او جالسون حول البوابات يدخنون والبعض ممددين على جذوعهم وهم عراه فوق الجسر عيونهم نصف مغلقة في طريقهم الى الحلم ربما تحت تأثير الكانجا الجو هادىء الان والبحر يجعد امواجه البطيئة يفي مواجهه هيكل السفينة اتخذ لونا صارخا لايخرج منه الضوء مطلقا اسمع الاصنات بتميز ضحكات البحارة الذين يلعبون النرد في مقدمة السفينة وحديث قائد الدفه الاسود الممل والذى يتحدث الى القبطان دون ان ينظر اليه . كل هذا غريب شبيه بحلم مبتور منذ زمن طويل مولود من بريق البحر عندما تنزلق البارجة قريبا من مورن تحت فراغ السماء عديم اللون افكر في المكان الذى اذهب اليه وقلبى يدق بسرعة هائلة البحر طريق املس للعثور على الاسرار والمجهول الذهب في الضوء حولى مختفى تحت مرآة البرح افكر فيما ينتظرنى في الطرف الاخر من هذه الرحلة وكأنها أرض ذهبت اليها بالفعل ذات مرة وسوف افقدها . السفينة تنزلق فوق مرآه الذاكرة لكن هل استطيع أنافهم عندما اصل ؟ هنا فوق جسر زيتا التى تتقدم بهدوء في ضوء الشفق المتراخى وفكرة المستقبل تصيبنى بالدوار اغمض عينى لكى لا ارى ابهار السماء وجدار البحر غير المتصدع .

*

اليوم التالى في الميناء

*

رغم ترددى كان على ان امضى الليل اسفل العنبر القبطان برادمير لا يريد احدا فوق الجسر اثناء الليل انام على الارضية ذاتها (مراتب البحارة لاتبعث على الثقة) وراسى يميل على غطائى الملفوف المبروم اتشبث بمقبض صندوقى بسبب التمايل الذى لايكف القبطان برادمير ينام في نوع من المخدع المبنى في هياكل السفينة بين عارضين عملاقين من خشب الساج المربع تقريبا واللذان يدعمان الجسر .وركب حتى ستار مؤقت يسمح له بالاعزال لكنه يجعله يختنق لانه في الصباح الباكر رأيت انه ازاح الستار عن وجهه .

ليلة مرهقة بسبب التمايل بداية ولكن ايضا بسبب الاختلاط رجال يشخرون ويسعلون يتكلمون ذهابا وايابا دون انقطاع في العنبر ذو الفتحات لاستنشاق قليل من الهواء المنعش او للتبول اسفل الجسر تحت الريح الغالبية اجانب من جزر القمر وصوماليون يتكلمون لغة خشنة او هنود من مالابار ذوى جلد داكن ونظرة حزينة اذا كنت لم انم لحظة في تلك الليله فبسبب هؤلاء الرجال ايضا في ظلمة العنبر الخانقة المثقوب بالكاد بوميض المصباح المرتعش مع تأوهات الهيكل المتأرجح بالامواج شعرت تدريجيا باضطراب عبثى لايقاوم من بين هؤلاء الرجال لايوجد متمردين من هؤلاء القراصنة المشهورين في شرق افريقيا الذين تحدثوا عنهم كثيرا في صحف الرحلات التى كنت اطالعها مع لور .

ربما يكونوا قد عزموا على قتلنا القبطان برادمير وأنا وافراد الطاقم الذين لم يكونوا شركاء في اختطاف السفينة ربما يكونوا قد اعتقدوا انى احمل نقودا واشياء ثمينة في هذا الصندوق القديم الذى وضعت فيه اوراق ابى بالتأكيد كان على ان افتحة امامهم لكى يروا انه لايحتوى الا على اوراق قديمة وخرائط وقماش وجهاز قياس لكن هل فكروا اذن انه يوجد جيب سرى ملىء بقطع الذهب ؟ بينما تتدحرج السفينة ببطء شعرت في كتفى العارى بالجذع المعنى الحار وبقيت مفتوح العينين لكى اراقب ظلام العنبر .أى فارق مع هذه الليلة الاولى فوق جسر زيتا عندما ظهرت السفينة في منامى واستيقظت فجأة في الصباح مبهورا بالبحر الشاسع .

أين نذهب ؟ بعد ان بلغنا خط الشمال منذ التحرك لم يعد هناك شك الان اننا ذاهبون الى اجاليجا انه لشعب هذه الجزيرة البعيدة يحمل القبطان برادمير الجزء الاكبر من حمولته الغريبة بالات النسيج لفات من سلك الحديد براميل نفط صناديق صابون اكياس من الارز والدقيق والفول والعدس ثم كل انواع الاوانى والاطباق المطلية بالمينا والمغلفة في الشباك كل هذا سيباع للصينيين الذين يفتحون متاجر من اجل الصيادين والمزارعين .

وجود هذه الادوات ورائحة السلع تطمئننى هل هى شحنة للقراصنة ؟ زيتا متجر عائم وفكرة التمرد تبدو لى فجأة مثيرة للضحك . لكنى لا انام بسبب ذلك الان الرجال سكتوا لكن الحشرات هى التى بدأت اسمع ركض الصراصير الضخمة التى تطير احيانا عبر العنبر وهى ترتج بين ركضها وطيرانها اسمع ضوضاء البعوض الحادة بالقرب من أذنى امضى في مواجهتها هى ايضا مغطى الذراع والوجه بقميصى .

غير قادر على النوم اذهب بدورى حتى السلم واخرجت رأسى عن طريق الطاقات المفتوحة في الخارج الليل جميل الريح بدأ يصفر ويضرب الاشرعة المفرودة بنسبة ثلاثة ارباع انه ريح باردقادم من الجنوب يدفع السفينة بعد حرارة العنبر الخانقة اصابنى الريح برجفه لكنها رائعة سأكسر اوامر القبطان برادمير مزودا بغطاء الحصان من ايام بوكان اقف على الجسر وامشى نحو القوس في الخلف قائد الدفه الاسود واثنين من البحارة يصحبانه يدخنون الكانجا اجلس على القوس تماما تحت اجنحة الاشرعة وانظر الى السماء والبحر لايوجد قمر ومع هذا تراقب عيناى المتستعتان كل موجةوماء الليل الملون ويقع الرغوة ضوء النجوم هو الذى يضىء البحر . لم ار النجوم مطلقا على هذا النحو حتى فيما مضى في حديقة بوكان عندما كنا نسير مع والدنا على " ممر النجوم " لم تكن جميلة هكذا

على الارض السماء اكلتها الاشجار والتلال وعتمها هذا الرزاز الدقيق مثل رائحة كريهه تخرج من الجداول وحقول العشب وافواه لالابار السماء بعيدة نراها كما من خلال نافذة ولكن هنا في وسط البحر لاحدود لليل .

لايوجد شيء بينى وبين السماء انام على الجسر رأسى يميل على الفتحة المغلقة واراقب النجوم بكل ما اوتى من قوة كما لو كنتاراها للمرة مالاولى السماء تهوى بين الصارين والكواكب تدور تتوقف لحظة ثم تسقط من جديد لم اكن اعرفها بعد هنا النجوم لامعة تماما حتى الاضعف والتى تبدو لى جديدة هناك " اوريون " على يسار السفينة ونحو الشرق ربما يكون " العقرب " انو " لوى آنتاريس " التى اراها بوضوح وانا استدير يفي مؤخرة السفينة بالقرب من الافق الذى لايمكنى الا ان اخفض عينى لكى اتابعها في تأرجحها البطىء هى النجوم التى ترسم صليب الجنوب اتذكر صوت ابى عندما كان يرشدنا عبر الحديقة المظلمة ويطلب منا التعرف عليه ضعيفا وعابرا فوق خط التلال .

انظر الى هذا الصليب من النجوم وهذا يبعدنى ايضا اكثر لانه ينتمى حقا لسماء بوكان لا استطيع غض بصرى عنه خوفا من ان افقدة الى الابد .

هكذا نمت في تلك الليلة قبل الفجر بقليل عيناى مفتوحتان على صليب الجنوب ملفوف في الغطاء الوجه والشعر مدفوعين بهبوب الرياح وانا اسمع صفعات الرياح في الاشرعة وضوضاء البحر التى تطقطق في صدر السفينة .

*

يوم اخر في البحر

*

استيقظ منذ الفجر وانظر الى البحر الذى لايكاد يتحرك من مكانى في المؤخرة بالقرب من قائد الدفه الاسود قائد الدفة من جزر القمر له وجه اسود جدا حبشى لكن بعينين خضراوين ذاهيتين هو الوحيد الذى يتكلم حقا مع القبطان برادمير وميزتى كمسافر دافع للاجر تعطينى الاولوية في امكانية الجلوس بالقرب منه والاستماع اليه وهو يتكلم . انه يتكلم ببطء ويختار كلماته بفرنسية افقية جدا ذات لكنه خلاسية تقريبا يقول انه كان فيما مضى في مدرسة " آباء موروني " وكان عليه ان يصبح كاهنا ذات يوم ترك كل شيء بدون سبب حقيقى ليصبح بحارا له الان ثلاثين عاما يبحر يعرف كل ميناء من مدغشقر حتى الساحل الافريقى ومن زنزبار حتى شاجوس يتحدث عن الجزر وعن سيشيل وعن رودريج وايضا عن مالاكثر بعدا خوان دى نوفا فاركهار الدابر اماما يحبها اكثر فهى سان براندون التى لاتنتمى الا الى سلاحف البحر والعصافير امس تركت مشهد الامواج التى تتقدم وتتجدد في المكان ذاته وجلست على الجسر بالقرب من قائد الدفه وسمعته يتحدث الى القبطان برادمير التدث امام برادمير هو مايجب ان اقول ذلك ان القبطان بلغة النجليزية جيدة يستطيع ان يظل ساكنا على مدى ساعات جالسا على مقعد كاتب المحكمة يدخن سجائرة الصغيرة الخضراء اثناء حديث قائد الدفه دون ان يجيب بشيء اخر غير همهمة الموج المقبوله نوع من " الهمهمة " التى لاتعنى الا التذكرة بأنه دائما هنا قصص مروعة عن البرح يحكيها قائد الدفة بصوته البطيء والغنائى ونظرته الخضراء التى تمسح الافق قصص الموانيء والعواصف والصيد والفتيات قصص بلا هدف وبلا نهاية مثل حياته الخاصة .

احب عندما يتحدث عن سان براندون لانه يتكلم عنها كما عن الجنه .انه المكان الذى يفضله ويعود اليه دون انقطاع بالفكر وبالحلم عرف الكثير من الجزر والكثير من الموانيء لكن هنا تعيدة طرق البحر " في يوم من الايام سأعود الى هناك لاموت هناك الماء ايضا ازرق وايضا شفاف مثل النافورة الاكثر نقاء .

في البحيرة هى شفافة شفافة لدرجة تنزلق عليها في زورقك دون ان تراها كما لو كنت تطير فوق الاعماق حول البحيرة توجد جزر كثيرة عشرة على ما اعتقد ولكنى لا اعرف اسماءها .عندما ذهبت الى سان براندون كنت في السابعة عشرة كنت لازلت طفلا كنت اهرب من الحلقة الدراسية حتى اننى ظننت انى وصلت الى الجنة والان لازلت اعتقد ان هنا هى جنه الارض .عندما لم يكن يعرف الناس الخطيئة اعطيت الجزر الاسماء التى

اردتها : كانت هناك جزيرة حدوه الحصان واخرى الملقاط واخرى الملك ولا ادرى لماذا جئت في مركب صيد من مورونى كان الرجال قد جاءوا هنا ليقتلوا للصيد مثل الحيوانات الجارحة في البحيرة كانت توجد كل الامساك البديعة كانت تعوم ببطء حول زورقنا دون خوف وسلاحف البحر التى كانت تجيء لترانا كما لم يوجد موت في الدنيا عصافير البحر كانت تطير حولنا بالالاف .. كانت تحط على سطح المركب وعلى عوارض الصارى للنظر الينا .. لانى اعتقد انها لم تكن قد رأت رجالا ابدا قبلنا .. فبدأنا في قتلها " قائد الدفه يتكلم عيناه الخضراوان مليئتان بالضوء وجهه يتطلع نحو البحر كما لو كان لايزال يرى كل هذا لاستطيع ان امنع نفسى من متابعة نظراته فيما وراء الافق حتى الجزر المرجانية حيث كل شيء جديد مثل اولى ايام العالم القبطان برادمير يسحب من سيجارته ويقول " هاهوم –هوم " مثل شخص لايمل من القول – خلفنا اثنين من البحارة السود احدهما مستمع دون ان يفهم حقا قائد الدفه يتحدث عن البحيرة التى لن يراها مرة اخرى الا في يوم وفاته يتحدث عن الجزر حيث يبنى الصيادين اكواخا من المرجان وقت تخزين السلاحف والاسماك يتحدث عن العاصفة التى تأتى كل صيف رهيبة بحيث يغطى البحر الجزر تماما وتجتاح كل اثر للحياة البرية كل مرة يمحو البحر كل شيء ولهذا تبقى الجزر جديدة دائما . لكن ماء البحيرة يظل جميلا نقيا هنا حيث تعيش اجمل اسماك الدنيا وشعب السلاحف .

صوت قائد الدفه ناعم عندما يتحدث عن سان براندون يبدو لى لكى اسمعه فأنا على هذه السفينة التى تتقدم وسط البحر .

البحر اعد لى هذا السر هذا الكنز أتلقى هذا الضوء الذى يومض ارغب في لون الاعماق هذا وهذه السماء وهذا الافق بلا حدود وهذه الايام وهذه الليالى التى لانهاية لها يجب ان اعرف اكثر ان اتلقى المزيد قائد الدفة لايزال يتحدث عن طاولة الكاب وخليج انطونجيل والزوارق العربية التى تتجول على طول الساحل الافريقى وقراصنة سوقوترا وعدن ماحبه هو جرس صوته الغنائى ووجهه الاسود حيث تلمع عيناه وخياله الطويل المنتصب امام عجلة القضيب بينما يقود سفينتنا نحو المجهول وهذا يختلط بضجيج الريح في الاشرعة وفي الرذاذ حيث يضىء قوس القزح كلما دفع الفاصل موجة .

كل مساء عند زوال النهار اكون في مؤخرة السفينة واتطلع الى المجرة التى تضىء انها اللحظة التىافضلها غير قائد الدفة وبحار بيراقب البحر فافكر في الارض وفي ماما ولور البعيدين جدا في وحدتهم بحى فورست ارى نظرة لور القاتمة عندما كنت احدثها عن الكنز والحلى والاحجار الكريمة التى يخفيها القرصان المجهول هل كانت تسمعنى حقا ؟ وجهها كان منبسطا ومغلقا وفي اعماق عينيها كان يلمع لهبا شديدا لم اكن افهمه هذا اللهب هو الذى اريد ان اراه الان في نظرة البحر اللانهائية انا في حاجة الى لور اريد ان اتذكرها كل يوم لانى اعلم أننى بدونها لن استطيع ان اجد ما ابحث عنه لم تقل شيئا عندما إفترقنا لم

تكن حزينة ولا سعيدة لكن عندما نظرت الى على رصيف محطة كورمبيب رأيت مرة اخرى هذا اللهب في عينيها ثم استدارت وذهبت قبل ان يتحرك القطار رأيتها تسير وسط الحشد على طريقة حى الغابة حيث تنتظر ماما التى لم تكن تعرف شيئا بعد .

هى لور التى اريد ان اتذكرها كل لحظة في حياتى من اجلها انا على هذا المركب الذى يتقدم بعيدا جدا فوق البحر يجب ان اهزم القدر الذى طردنا من منزلنا والذى دمر كل شىء وادى الى موت والدنا عندما رحلت على زيتا خيل الى انى حطمت شيئا وبددت دائرة اذن عندما اعود مجددا كل هذا سيتغير ويتجدد .

انى افكر في هذا ونشوة الضوء يفي داخلى الشمس تمس الافق برفق لكن فوق البحر الليل لايحمل اى قلق على العكس توجد نعومة تهل على هذا العالم حيث اننا الاحياء وجدنا على سطح المساء السماء تنام في لونها الارجوانى البحر المظلم تماما في اوج الشمس هو حاليا سلس وخفيف مثل دخان بنفسجى يمتزج بسحب الافق ويحجب الشمس .

اسمع صوت قائد الدفه الغنائى الذى يتكلم ربما مع نفسه وهو يقف امام القضيب وبجانبة مقعد القبطان برادمير خاليا لانها الساعة التى ينسحب فيها الى كهفه لينام او لكى يكتب في ضوء الغسق الافقى خيال قائد الدفه الطويل يجرد بها الاشرعة ويبدو غير واقعى مثل ضوضاء كلماته الغنائية التى الاحظ دون ان افهمها الليل يهبط وافكر في خيال بالينوروس كما ينبغى ان تراها إينيه او ايضا في تيفيس على السفينة ارجو حيث لم انس مالعبارت حين عمل عند هبوط الليل على طمأنة رفاق الرحلة :" تيتان دخل في الامواج نظيفا لتأكيد اعلامة السعيدة ثم في الليل الرياح تقدم دعما افضل للاشرعة والبحر وخلال هذه الساعات الصامتة السفينة تذهب بعيدا نظرتى لم تعد تتبع مسار النجوم التى تترك السماء لتدخل في البحر مثل اوريون الذى سقط بالفعل او برسيه الذى رج عضب الموج لكن دليلى هو هذا الثعبان الذى تتشابك مع حلقاته سبعة نجوم تلوح في الافق دائما ولا تختفى ابدا " بصوت عال اردد اشعار فاليريوس فلاكوس التى كنت اقرؤها فيما مضى في مكتبة مالى وفي لحظة ايضا استطيع ان اثق في حافة السفينة ارجو .

في وقت لاحق في هدوء الغسق رجال الطاقم صعدوا على الجسر انهم جذوع عارية في النسيم العليل يدخنون يتحدثون او ينظرون الى البحر مثلى .

منذ اليوم الاول اتطلع للوصول الى رودريج هدف رحلتى ومع هذا فالان اتمنى الا تنتهى هذه الساعة ابدا وان تواصل السفينة زيتا مثل ارجو الانزلاق في الماء الخفيف الى الابد بالقرب تماما من السماء مع شراعها المبهور بالشمس مثل لهب في مواجهه الافق في الليل بالفعل .

*

ليلة في عرض البحر ايضا

بعد ان نمت في العنبر في مكانى امام صندوقى استيقظت بفعل الحرارة الخانقة والنشاط غير المحدود للصراصير والفئران الحشرات تهمهم في هواء العنبر الثقيل فالظلام يجعل تحليقها اكثر قلقا ينبغى النوم والوجه مغطى بمنديل او ذيل قميص اذا لم نرغب في تلقى واحدة من هذه الوحوش في كامل الوجه الفئران اكثر حذرا لكنها اكثر خطرا . في الامسية الماضية تلقى رجل عضة في يده من احد هذه القوارض الذى عيث في طعامة . اصيب الجرح رغم الخرق المنقوعة في العرقى الذى استخدمه القبطان برادمير في علاجة والان اسمع الرجل الذى يهذى من الحمى على فراشة البراغيث والقمل لاتترك اى فترة راحة هى الاخرى كل صباح نجد لدغات الليل التى لاتحصى الليله الاولى التى امضيتها في العنبر كان على ان اعانى ايضا من هجمات كتائب البق ولهذا فضلت ان اتخلى عن المراتب التى خصصت لى قذفت بها الى اعماق العنبر ونمت على الارضية ذاتها ملفوفا في غطاء الحصان القديم الذى له الفضل ايضا في تخفيف عذابى من الحر وانقاذى من رائحة العرق والماء المالح الذى يملأ هذه المنصات .

لست الوحيد الذى يتعذب من الحر السائد في عمق العنبر واحدا بعد الاخر يستيقظ الرجال يتحدثون ويستأنفون جزءا لاينتهى من الحديث هنا حيث تركون ماالذى يمكن ان يقوموا به جيدا ؟ القبطان برادمير الذى طرحت عليه السؤال هز كتفيه وكان سعيدا بالرد " زوجاتهم على الرغم من اوامر القبطان اشعل البحارة في مقدمة العنبر مصباحا قديما بالزيت الضوء الاحمر يميل مع ميل السفينة ويضىء بطريقة غيبة الوجوه السوداء التى تلمع من العرق من بعيد ارى بياض عيونهم اللامع واسنانهم البيضاء ماذا يفعلون حول المصباح ؟ لايلعبون بالاحاديث لايغنون يتكلمون الواحد بعد الاخر بصوت منخفض يفي حديث طويل بأصوات كثيرة تقطعها الضحكات من جديد يعود الى الخوف من التأمر والتمرد واذا كانوا قد قرروا حقا الاستيلاء على زيتا واذا كانوا قد القوا بنا في البحر برادميروقائد الدفه وأنا ؟ من سيعرف؟من الذى سيذهب للبحث عنهم في الجزر البعيدة في قناة موزمبيق أو على شاطىء إيرينا ؟ انتظر دون ان اتحرك ورأسى يتجه نحوهم انظر بين رموشى الى الضوء الخافق حيث تحترق تماما الصراصير الحمراء والبعوض .

بعد ذلك كما في المساء السابق ودون ان احدث ضجيجا صعدت السلم في اتجاه فتحة السقف حيث يصفر ريح البحر ملفوف في غطائى اسير حافى القدمين على الجسر وانا اشعر ببهجة الليل وانتعاش الجو .

الليل كم هو جميل علىالبحر كما في مركز الكون عندما تنزلق السفينة دون ضجيج تقريبا على ظهر الامواج ذلك يعطى الاحساس بالطيران اكثر من الايجار كما لو ان الريح ثابت يدعم الاشرعة ويحول السفينة الى طائر عملاق بأجنحة ممتدة .

في تلك الليلة ايضا استلقى على الجسر تماما في مقدمة السفينة في مواجهة الفتحة المغلقة محمى بسور الدرابزين اسمع اهتزاز حبال الاشرعة يخترق رأسى وتجمد البحر المستمر يفتح لور كانت تحب موسيقى البحر هذه وهذا المزيج للصوت الحاد واصطدام الامواج الشديد بصدر السفينة . من اجلها استمعت الى ذلك لكى ارسلة لها حيث هى حتى منزل حى الغابة المظلم حيث تظل مستيقظة هى الاخرى اعلم هذا .

افكر ايضا في نظرتها قبل عدم الابتعاد وعدم السير بسرعة في اتجاه الطريق على امتداد خط السكة الحديد لا استطيع ان انسى هذا اللهب الذى يلمع في عينيها عندما إفترقنا ذلك اللهيب من العنف والغضب لذلك دهشت لدرجة انى لم ماعرف ماذا افعل ثم صعدت الى القطار دون تفكير الان على سطح زيتا التى تتقدم نحو مصير اجهله اتذكر تلك النظرة واشعر بتمزق المغادرة .

ومع ذلك كان لابد من الرحيل فلايمكن ان يكون هناك امل اخر مازلت افكر في بوكان في كل مكان يمكن انقاذة المنزل ذو السطح سماوى اللون الاشجار الوادى وريح البحر الذى يضطرب ليلا يثير في ظل مانانافا آهات العبيد الكستنائيين وطيران القش ذو الذيل قبل الفجر هذا مالا اريد ان اكف عن رؤيته حتى من الجانب الاخر من البحار حين تكشف لى مخابىء القرصان المجهول كنوزها .

السفينة تنزلق على الامواج خفيفة هوائية تحت اضواء النجوم اين الثعبان ذو المصابيح السبعة الذى تحدث عنه تيفيس لبحارة آرجو ؟ هل هو ايريداتوس الذى يرتفع في الشرق امام شمس سيريوس ام هو التنين الممتد نحو الشمال والذى يحمل على رأسة جوهرة ايتامين ؟ لكن لا اراه فجأة بوضوح تحت النجم القطبى انه جسد شاريوه خيف ودقيق يخفق الي الابد في مكانه في السماء .

نحن ايضا نتبع علامته ضائقين وسط زوبعة النجوم السماء يختار هذا الريح اللانهائى الذى يضخم اشرعتنا .

الان افه الى اين انا ذاهب وهذا اوصلنى الى ضرورة ان اقف لتهدئه دقات قلبى اذهب نحو القضاء نحو المجهول انزلق وسط السماء نحو نهاية لا اعلمها. لازلت افكر في القشتين بالذيل اللتان كانا تدوران وهما تحدثان ضوضاء حشرجة الموت فوق الوادى المظلم هربا من مالعاصفة عندما اغلق عينى اراهما كما كانتا فوق الصوارى .قبل الفجر بقليل غلبنى النوم بينما زيتا تتجه دون توقف نحو اجاليجا كل الرجال ينامون حاليا قائد الدفة الاسود متيقظ وحده نظرته التى لاترمش ثابته مستقيمة في الليل هو لاينام ابدا احيانا في بداية مابعد الظهيرة عندما تحترق الشمس فوق الجسر يهبط ليستلقى في العنبر ويدخن دون ان يتكلم عيناه مفتوحتان في الغسق وهو ينظر الى الالواح السوداء فوقه .

*

يوم نحو آجاليجا

منذ كم من الوقت ونحن نبحر ؟ خمسة ايام ستة ايام ؟بينما انظر الى داخل جزعى يفي غسق العنبر الخانق السؤال يفرض نفسه بداخلى مع قلق مريب ايا كان ؟ لماذا اريد ان اعرف ؟ لكنى بذلت جهودا كبيرة لكى اتذكر تاريخ رحيلى لمحاولة حساب الايام في عرض البحر أنه وقت طويل جدا ايام بلا عدد ومع هذا يبدو لى كل هذا ايضا عابرا للغاية إنه يوم واحد بلا نهاية بدأته عندما صعدت الى زيتا يوم شبيه بالبحر حيث تتغير السماء احيانا تغطى وتظلم حيث يستبدل ضوء النجوم بضوء الشمس لكن حيث لايكفى الريح عن الصفير ولا تكفى الامواج عن التقدم ولايكفى الافق عن تدوير السفينة .

كلما مضت الرحلة يصبح القبطان برادير اكثر ودا معى هذا الصباح علمنى أن احدد النقطة بمساعدة آله السدس وطريقة تحديد خط الطول وخط العرض اليوم ١٢ درجة ٣٨ جنوبا و ٥٤ درجة ٣٠ شرقا وحساب الحالة التى قمنا بها توفر الرد على سؤالى عن الوقت لان هذا يعنى اننا على بعد يومين من الابحار للجزيرة وعلى بعد دقائق قليلة جدا من الشرق بسبب الرياح التجارية التى ادت بنا الى الانحراف خلال الليل .فلما قضى النقطة رتب القبطان برادمير بعناية آله السدس في الكهف اظهرت له جهاز قياس الزوايا فنظر اليه بفضول حتى انه قال على ماعتقد : " فيما يحق الحجيم ليفيدك هذا ؟ " اجبته متهربا لم استطع ان اقول له ان والدى اشتراه وقتما كان يستعد للاستيلاء على كنوز القرصان المجهول ! صعد مالقبطان مرة اخرى على الجسر وذهب للجلوس من جديد على مقعدة خلف قائد الدفه فلما كنت قريبا منه اعطانى للمرة ممالثانية واحدة من سجائرة الرهيبة التى لم استطع ان ارفضها وتركتها تنطفىء وحدها في الريح .

قال لى :" هل تعرف ملكة الجزر ؟ سألنى بالانجليزية وكررت " ملكة الجزر ؟ " نعم ياسيدة اجاليجا سميت هكذا لانها الاكثر صحة والاكثر خصوبة في المحيط الهندى " إعتقدت انه سيقول اكثر لكنه صمت جلس ببساطة مربعا في مقعدة وردد بلهجة حالمة " ملكة الجزر .." قائد الدفه هز كتفيه قال بالفرنسية " جزيرة الفئران هكذا ينبغى بالاحرى تسميتها ثم بدأ يحكى كيف اعلن الانجليز الحرب على الفئران بسبب الوباء الذى انتشر من جزيرة الى اخرى " فيما مضى لم تكن توجد فئران على اجاليجا كانت تشبه ايضا جنه صغيرة على الاقل مثل سان براندون لانها الفئران حيوانات من الشيطان ولم يكن منها في الجنه وذات يوم وصلت مركب في الجزيرة قادمة من الارض الكبرى لم يكن احد يعرف اسمها مركب قديم لم يكن يعرف غرق امام الجزيرة وانقذت صناديق الشحن لكن داخل الصناديق كانت توجد فئران عندما فتحت الصناديق انتشرت في الجزيرة وولدوا الصغار واصبحوا اكثر لدرجة ان كل شىء اصبح لهم اكلوا كل مؤونه اجاليجا الذرة البيض الارز

كانوا كثيرين لدرجة ان الناس لم يكونوا يستطيعون النوم الفئران كانت تقضى حتى جوز الهند على الشجر وكانت تأكل حتى بيض طيور البحر حاولوا في البدايةمع القطط لكن الفئران تكاثرت وقتلت القطط واكلتها بالتأكيد فحاولوا بالفخاخ لكن الفئران ذكية لم تقع فيها ثم توصل الانجليز لفكرة جلبوا بمركب كلابا ثعالب ارضية هكذا تسمى ووعدوا باعطاء روبية مقابل كل فأر انهم الاطفال الذين تسلقوا اشجار جوز مالهند كانوا يهزون سعف النخيل لاسقاط الفئران وكانت الثعالب الارضية تقتلها قيل لى ان سكان آجاليجا كانوا يقتلون كل عام اكثر من اربعين الف فأرا ولايزوال يوجد بعضها انها كثيرة بصفة خاصة يفي شمال الجزيرة هذا هو كل شىء ولهذا فأن ملكة الجزر فعلت خيرا بتسميتها جزيرة الفئران

القبطان برادمير يضحك بشكل مدو ربما لانها المرة الاولى التى تحكى فيها قائد الدفه تلك القصة ثم يعاود برادمير التدخين في مقعدة المكتبى وعينيه تطويها شمس الظهيرة .

عندما يذهب قائد الدفه الاسود ليتمدد على فرشته في العنبر اشار برادمير الى عجله القيادة

" لك ياسيدى "

قال " سيدى " على الطريقة الخلاسية لست في حاجة الىان يكررها الان انا الذى يمسك بالعجلة الكبيرة يداى مثبتان على القابض المستهلكة اشعر بالامواج الثقيلة على الدفة والريح الذى يدفع الجناح الكبير انها المرة الانولى التى اقود فيها سفينة .

في لحظة عاصفة غطت زيتا شراع مشدودة تقطع وانا اسمع صدع الهيكل تحت الضغط يفي حين تحول الافق امام روق السفينة اما السفينة فظلت هكذا لحظة طويلة في توازن على قمة الموجة ولم اتمكن مطلقا من التنفس ثم فجأة غريزيا وضعت القضيب على يسار السفينة لتفادى الريح ببطء تعافت السفينة في سحابة من الرذاذ على سطح السفينة صاح البحارة "

" آيو ! "

لكن القبطان برادمير ظل جالسا دون ان يقول شيئا ضاقت عيناه وسيجارته الخالدة الخضراء في جانب من شفتيه هذا الرجل سيكون قادرا على الغرق مع سفينته دون ان يترك مقعدة .

الان انا على حذر اراقب الريح والامواج وعندما يبدوان ضاغطين بشدة امتثل وانا ادير عجلة القيادة اعتقد اننى لم اشعر قط أننى قوى هكذا وحر ايضا اقف على الجسر المحترق واصابع القدم متباعدة لامسك بشكل افضل اشعر بحركة الماء القوية على هيكل السفينة وعلى الدفة اشعر باهتزازات الامواج التى تضرب مقدم السفينة وضربات الريح في

الاشرعة لم اعرف ابدا شيئا من هذا ذلك يمحى كل شىء يمحى الارض والزمن انا في المستقبل الخالص الذى يحيط بى المستقبل هو البحر والريح والسماء والضوء .

طويلا خلال ساعات ربما ظللت واقفا اما عجلة ممالقيادة وسط دوامات الريح والمياه الشمس تحرق ظهرى ورقبتى هبطت على طول الجانب الايسر من جسدى انها تمس بالفعل الافق بالتدريب وتلقى غبارها النارى على البحر . أنا متآلف تماما مع إنزلاق السفينة بحيث احدد كل فراغ هواء وكل خواء الامواج .

قائد الدفة بالقرب منى ينظر الى البحر هوم ايضا دون ان يتكلم فهمت انه يريد ان يمسك من جديد عجلة القيادة جعلت سعادتى ايضا تستمر قليلا لكى اشعر بانزلاق السفينة على منحنى موجه تتردد ثم تعاود سيرها مدفوعة بالريح الذى يزن على مركز الجناح عندما نكون ادنى مستوى من الموج اتخذ خطوة جانبا دون ان اترك عجلة القيادة انها يد قائد الدفه القوية التى تقبض على عجلة الثادة فيمسكها بقوة عندما لايكون على القضيب فأن هذا الرجل يكون اكثر صمتا من القبطان . لكن ما ان تلمس يداه عجلة القيادة فأن تغيرا غريبا يطرأ عليه كما لو كان شخصا اخر اكبر واقوى وجهه النحيف المحترق بالشمس مثل نحت من البازلت يأخذ تعبيرا حادا ونشطا عيناه الخضراوان تبرقان تصبحان متحركتان وكل وجهه يعبر عن سعادة استطيع ان افهمها يفي الوقت الحالى .

عندئذ يتكلم بصوته الغنائى يفي مونولوج لانها ية له يذهب في مهب الريح عمما يتكلم ؟ اجلس على الجسر الان الى يسار قائد الدفه بينما القبطان براميز يستمر في التدخين على مقعدة ليس له ولا لى ما يتحدث قائد الدفة له نفسه مثل آخرين يغنون او يصفرون .

يتحدث ايضا عن سانبراندون حيث النساء لايحق لهن الذهاب يقول : " ذات يوم رغبت فتاه في يالذهاب الى سان براندون فتاة سوداء من ماهيه كبيرة وجميلة لاتتعدى السادسة عشرة على ما اعتقد ولما كانت تعلم ان هذا ممنوعا طلبت من خطيبها وهو رجل كان يعمل على مركب صيد قائلة له : اذا سمحت اصحبنى ! هو في البداية لم يشأ لكنها قالت لها لن يعرف بالامر احد سأذهب متنكرة في زى صبى وستقول :

أنى اخوك الصغير هذا كل مافى الامر فانتهى الى الموافقة وتنكرت في هيئة رجل ارتديت بنطلونا مستعملا وقميصا واسعا وقصت شعرها ولما كانت كبيرة ورفيعة تعامل معها الصيادون الاخرون على انها صبى فرحلت معهم على المركب نحو سان براندون طوال الرحلة لم يحدث شيئا الريح كان لطيفا كالنفس والسماء كانت زرقاء صافية والمركب وصل الي سان براندون يفي اسبوع واحد لم يعلم احد ان امرأة كانت على سطح المركب الا خطيببها بالتأكيد لكن احيانا في يالمساء كان يتحدث اليها بصوت منخفض كان يقل لها : اذا عرف القبطان بذلك سيغضب ويطردنى قالت له كيف سيعرف ؟

دخل المركب اذن في البحيرة هنا حيث كما الجنة والرجال بدأوا في صيد السلاحف الكبيرة التى كانت لطيفة لدرجة انها تركت تفسها للصيد دون ان تبحث عن الهرب حتى الان لم يكن قد حدث شيء ايضا لكن عندما ابحر الصيادون الى احدى الجزر لقضاء الليل ارتفع الريح واصبح البحر مخيفا . الامواج مرت فوق الشعاب وتكسرت في البحيرة وطوال الليل كانت هناك عاصفة رهيبة وغطى البحر صخور الجزر الرجال تركوا حظائرهم ولاذوا بالاشجار فاخذ الجميع يصلون للعذراء والقديسين لحمايتهم وابدى القبطان وهو يرى مركبة يسقط على الشاطيء والامواج تحوله الى فتات وظهرت موجه اعلى من الاخريات جرت نحو الجزر مثل حيوان متوحش وعندما وصلت قلعت صخرة كان الرجال يلوذون بها وفجاة عاد الهدوء وبدأت الشمس تشرق كما لو لم تكن هناك عاصفة قط فسمعنا صوتا يبكى ويقول : آيو آيو اخى الصغير ! كان الصياد الشاب الذى رأى الموجه وهى تحمل خطيبته لكن لما كان قد عصى وهو يصحب أمرأة في يالجزر خاف من عقاب القبطان واخذ يبكى وهو يقول " آيو اخى الصغير !

عندما انتهى قائد الدفه من الكلام اخذ الضوء لونه الذهبى على سطح الماء والسماء القريبة من الافق كانت شاحبة وفارغة هبط الليل بالفعل ليله اخرى لكن الشفق يدوم طويلا على البحر وأرى النهار يختفى ببطء شديد . هل هنا العالم نفسه الذى عرفته ؟ يبدو لى اننى دخلت عالما اخر ونحن نعبر الافق انه عالم يشبه عالم طفولتى في بوكان حيث يسود ضجيج البحر كما لو ان زيتا كانت تبحر بعيدا على الطريقة الذى يلغى الزمن .

بينما النهار يتلاشى تدريجيا تركت نفسى مرة اخرى اذهب الى الحلم اشعر بحرارة الشمس على رقبتى وعلى كتفى اشعر ايضا بريح المساء اللطيف الذى يذهب اسرع من سفينتنا .الجميع يلتزمون الصمت كل مساء مثل ثغر غامض يراقبة كل واحد منهم لا احد يتكلم تصغى الى ضجيج الموجات في صدر السفينة واهتزازات الاشرعة والاحبال الخرساء مثل كل ليله بحارة جزر القمر يركعون على الجسر في مقدم السفينة ليتلوا صلاتهم في اتجاه الشمال . اصواتهم تأتى الى كهمهمات صماء ممتزج بالريح وبالبحر لم يكن اكثر من هذا المساء انزلاق الهيكل السريع وتأرجحةالبطيء فوق هذا البحر الشفاف والشبيه بالسماء لم اشعر عند هذه النقطة بجمال هذه الصلاة التى لاتتوجه الى اى مكان وتضيع في اللاحدود افكر كم احب ان تكونى هنا يا لور بجانبى انت التى تحبين كثير الغناء الذى يتردد في تلال حى الغابة وان تستمعى هنا الى هذه الصلاة وهذه الارتعاشة بينما تتأرجح السفينة على طريقة طائر البحر الكبير بجناحيه المبهرين احب ان اصحبك معى مثل صياد سان براندون انا ايضا استطيع ان اقول انك " أخى الصغير " ! .

اعلم ان لورستشعر بما اشعر به عند الاستماع الى صلاة بحارة جزر القمر عند غياب الشمس ولن تكون في حاجة الى الكلام لكن في الوقت نفسه الذى افكر فيه فيها اشعر بهذا الوخز في القلب افهم اننى الان على العكس اقترب منها . لور في بوكان من جديد في الحديقة الشاسعة الممتلأة بالنباتات المتسلقة والاشجار بالقرب من المنزل او بالاحرى تمشى على الطريق الضيقة لحقول القصب لم تترك ابدا المكان الذى احبته في نهاية رحلتى يوجد البحر الذى يتدفق على شاطىء تاماران الاسود ورجوع الامواج الى مصب الانهار لكى اعود الى هناك رحلت لكنى لن اعود كما كنت سأعود كشخص مجهول هذا الجذع القديم الذى يحتوى على الاوراق التى تركها ابى سيكون اذن مليئا بالذهب وبمجوهرات القرصان انه كنز كولكوند او فدية او رنج زيب .سأعود متشربا برائحة البحر محترقا بالشمس قويا متمرسا مثل جندى لاستعادة ضيعتنا الضائعة انى احلم بهذا في الغسق الساكن . واحدا بعد الاخر نزل البحارة الى العنبر ليناموا في الحرارة المشعة في الهيكل الساخن من الشمس طوال اليومنزلت معهم تمددت على الفرشة رأسى يميل على صندوقى اسمع ضجيج الطرف اللانهائى الذى يبدأ من هنا حيث قطعه بزوغ النهار .

*

الاحـــــــد

نحن في اجاليجا بعد خمسة ايام من العبور .

شاطىء الجزر التوأم كان ينبغى ان يرى في وقت مبكر جدا من هذا الصباح مع شروق الشمس نمت بعمق وحدى في عمق العنبر رأسيميل على الارضية غير مدرك للضجيج على سطح السفينة مياه الخليج الهادئة هى التى ايقظتنى لانى اعتدت كثيرا إهتزاز السفينة المستمر بحيث اقلقنى هذا السكون اذهب فورا الى سطح السفينة حافى القدمين دون ان اكلف نفسى عناء ارتداء قميصى امامنا الرقعة الرمادية الخضراء تمتد مزينة برغوة الشعاب بالنسبة لنا نحن الذين لم نشاهد منذ ايام غير امتداد زرقة البحر وهى تنضم الى زرقة السماء الشاسعة هذه الارض حتى وهى تبدو ايضا مسطحة وجرداء مدهشة كل رجال الطاقم مالوا على الدرابزين وعلى عجلة القيادة ينظرون بلهفة الى الجزيرتين . القبطان برادمير اصدر امرة بالجذب والسفينة انحرفت عدة اميال من الساحل دون ان تقترب عندما سألت قائد الدفة لماذا اجاب فقط "يجب انتظار اللحظة " القبطان برادمير الواقف بجوار مقعدة هو الذى شرح لى : يجب انتظار التيار حتى لانخاطر بدفع التيار في مواجهه الحاجز المرجانى .عندما نكون على مقربة بما فيه الكفاية من الممر نستطيع اسقاط المرساة ووضع الزورق في البحر للذهاب الى الساحل المد لا يأتى الا بعد الظهر عندما تنخفض الشمس .في غضون ذلك يجب علينا الصبر والاكتفاء بالنظر الى الشاطىء القريب للغاية مصعب المنال .

حماس البحارة فتر مرة اخرى الان يجلسون على الجسر في ظل الشراع الذى يخفق في الريح الضعيف لكى يلعبون ويدخنون . على الرغم من قرب الساحل فأن المياة زرقاء داكنة متكىء على الدرابزين في المؤخرة ارى ظلال اسماك القرش الخضراء الكبيرة وهى تمر .

طيور البحر تجىء مع المد وطيور النورس وزمج الماء وطيور الندى التى تدور فتضمنا بصرخاتها انها تتضور جوعا وتعتبرنا واحدا من قوارب الصيد بالجزر وتطالب بصرخات مدوية بحقها عندما تدرك خطاها تبتعد الطيور وتعود الى مأوى الشعاب المرجانية أثنا ناو ثلاثة فقط من طيور الندى واصلت في خط دوائر كبيرة فوقنا ثم اتجهت نحو البحر وحلقت على ارتقاع منخفض فوق الامواج بعد كل هذه الايام السابقة التى قضت في البحر المهجور فأن مشهد طيران طيور النوء ملأنى بالسرور .

حوالى نهاية بعد الظهيرة نهض القبطان برادمير من مقعدة واعطى اوامر لقائد الدفه الذى رددها بينما رفع الرجال الاشرعة الكبيرة وقف قائد الدفة عند الحاجز على اطراف اصابعة لكى يرى افضل .

سوف نبلغ الشاطىء ببطء تحت ضغط الريح الخفيف من المد المتصاعد تقترب زيتا من الحاجز .

الان نرى بوضوح الموجات الطويلة تسحق الحاجز المرجانى وتسمع الهدير المستمر .

عندما لم تعد السفينة الا على بعد عده اقدام منم الشعاب المرجانية وجهت عجلة القيادة يمينا نحو الممر امر القبطان بزرع المرساة المرساة الرئيسية تسقط اولا في البحر على امتداد سلسلتها الشديدة ثم يرمى البحارة ثلاث مرساة اصغر حجما مراة الفرقاطة في الميناء والميمنه والمؤخرة .

عندما سألته عن سبب هذه الاحتياطات الكثيرة حكى لى القبطان في كلمات قليله عن غرق ثلاث ساريات مركب شراعى حمولة مائه وخمسن طنا اسمه كاليناد في عام ١٩٠١ : كان قد زرع المرساة هنا بالتحديد في مواجهه الممر ثم نزل الجميع على الارض حتى القبطان تاركا على المركب نوتيين بدون خبرة بعد ساعات قليلة اشتد المد لكن في هذا اليوم بقوة غير عادية والتيار الذى اندفع نحو الممر الوحيد كان شديدا بحيث قطع سلسلة المراة على الشاطىء كان الناس قد شاهدوا المركب يقترب عاليا جدا فوق الدرابزين حيث تكسر البكر كما لو كان سيطير ثم وقع مرة واحدة على الشعاب المرجانية وبينما هو يتراجع دفعته موجه نحو عمق البحر وعثر يفي اليوم التالى على قطع من المرساة وقطع من الاخشاب وبعض بالات البضائع ولكن لم يعثر مطلقا على النوتيين .

وهنا اعطى القبطان امرا باحضار كل الاشرعة ووضع الزورق في البحر نظرت الى المياه المظلمة – هناك اكثر من عشرة اقدام في العمق – وارتعدت وانا افكر في ظل اسماك القرش الخضراء التى تنزلق من هنا والتى تنتظر ربما غرقا آخر .

ما ان اصبح الزورق في الماء انزلق القبطان على حبل طويل بخفة لايمكننى ان اشك فيها ومعه اربعة من البحارة امنيا سيتم القيام برحلتين وسأكون يفي الثانية متكىء على الدرابزين مع البحارة الاخرين انظر الى الزورق الذى يتقدم ناحية مدخل الممر . ثم على غارب موجات عالية يدخل الزورق في القناه الضيقة بين الشعاب السوداء في لحظة اختفى في غور موجه ثم ظهر مرةم اخرى من الناحية الاخرى من الجدار في مياه البحيرة الهادئة هنا جرى نحو السد حيث ينتظر سكان الجزيرة .

على سطح زيتا نفد صبرنا الشمس منخفضة عندما عاد الزورق تحييه صيحات فرح البحارة هذه المرة جاء دورى كما حدد قائد الدفة انزلق بطول الحبل حتى الزورق ويصعد اربعة بحارة اخريين البالسطح نجدف دون رؤية الممر انه قائد الدفة الذيتصدى واقفا لكى يقود افضل .هدير الامواج يحذرنا من ان الحاجز قريب في الواقع وفجأة اشعر بزورقنا يرفع بموجه سريعة وفوق قمة الموجة نعبر القناة بين الشعاب ها نحن بالفعل على الجانب الاخر في البحيرة على بعد اقدام من حاجز الامواج المرجانى الطويل في المكان الذى تموت فيه الامواج قريبا جدا من شاطىء الرمال جعلنا قائد الدفه ترسو وربط الزورق قفز البحارة على الحاجز وهم يصيحون واختفوا وسط حشد من الناس .

انزل بدورى على الشاطىء توجد كثرة من النساء والاطفال وصيادين سود وهنود ايضا الجميع ينظرون لى بفضول فيما عدا القبطان برادمير الذى يأتى عندما تكون لدية بضاعة لهؤلاء الناس لا يرون دائما اشخاصا من البيض ثم مع شعرى الطويل ولحيتى ووجهى وذراعى المحترقتين من الشمس وملابسى المتسخة وقدمى الحافيتين اصبح ابيضا بشعا الاطفال بصفة خاصة يختبروننى يضحكون علنا . على الشاطىءئ توجد كلاب بعض الماعز السوداء والنحيفة وشباب يهرول بحثا عن الملح .

الشمس ستغيب السماء تضىء باللون الاصفر فوق اشجار جوز الهند خلف الجزر اين سأنام ؟ استعد لايجاد ركن على الشاطىء بين الزوارق عندما يمنحنى القبطان برادمير فرصة ممصاحبته حتى الفندق دهش لكلمة " فندق " اضحكته في الواقع فان الفندق هو بيت قديم من الخشب صاحبته امرأة نشطة مزيجا من السواد والهندية تؤجر غرف لقله من المسافرين الذين يغامرون في آجاليجا ويبدو انها استقبلت رئيس محكمة موريشيوس خلال زيارته الوحيدة في عام ١٩٠١ او عام ١٩٠٢ للعشاء قدمت لنا السيدة كابوريا بالكارى او البهار الهندى ممتازة خاصة بعد طعام زيتا الصينى القبطان برادمير يتمتع بقريحة فسأل مضيفتنا عن سكان الجزيرة وحدثنى عن خوان دى نوفا اول رحالة استكشف آجاليجا وعن

مستعمرة فرنسية وعن ششخص يدعى او جوست لودوك الذى نظم انتاج جوز الهند المورد الوحيد لهذه الجزر اليوم الان الجزر المجاورة تتيح ايضا الاخشاب النادرةوالاكاجو وخشب الصندل وخشب الابنوس تحدث عن سيكال المدير الاستعمارى الذى اسس المستشفى ورفع اقتصاد الجزيرة في مطلع هذا القرن .

عزمت على استغلال وقت المرسى لزيارة هذه الغابات التى تبدو الاجمل في المحيط الهندى اخبرنى برادمير انه يجب تحميل مائة برميل من نفط جوز الهند .

انتهى الطعام سأتمدد على فراشى في الغرفة الصغيرة في نهاية البيت رغم التعب وجدت صعوبة في الخلود الى النوم بعد كل هذه الليالى في العنبر الخانق اقلقنى هدوء هذه الغرفة وشعرت رغما عنى بحركة الامواج التنتوقظنى ايضا فتحت المصاريع لاتنفس هواء الليل في الخارج رائحة الارض ثقيلة وحق الضفادع ينظم ايقاع الليل .

كما استعجلت بالفعل البحث عن صحراء البحر وضجيج الامواج ضد الحاجز والريح المهتز يفي الاشرعة والشعور بانخفاض معدل الهواء والماء وطاقة الفراغ والاستماع الي موسيقى الغياب اجلس على المقعد القديم المحطم امام النافذة المفتوحة اتنفس رائحة الحديقة اسمع صوت برادمير وضحكته وضحكة المضيفة يبدوان في لهو ... ايا كان الامر اعتقد اننى إستغرقت في النوم هكذا الجبهة على اطار النافذة .